مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية (عقيدة – تفسير – حديث) ISSN 2410-5201 IUGJIS
Vol 26, No 2, 2018, pp 281 - 313

تاريخ الإرسال (2017-08-27)، تاريخ قبول النشر (2017-12-02)

تدبر أسلوب التعليل القرآني وأثره على النص

أ. نجوى نايف شكوكاني [1]،*

د. رضوان جمال الأطرش [1]

[1] قسم القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية، كوالالمبور، ماليزيا

* البريد الالكتروني للباحث المرسل:

E-mail address: najwa201558@gmail.com

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق التدبر في واحدٍ من الأساليب القرآنية المعجزة وهو أسلوب التعليل، وبيان الغاية من كثرة استخدامه في آي القرآن الكريم وبمواضع خاصةً وبمواضيع غايةً في الأهمية واستنتاج أثرها على المسلم حسب الموضوع المطروح، وبذلك نجد أن منهجاً قد أقام الله عليه العقائد، والأحكام، والفرائض بالعلل، ومنه نكتسب الطريق الصحيح التفكير، والبناء، وإعمار الأرض، وعلى الرغم من تركيز الخطاب القرآني عليه بكثرة، وتنوع الدراسات حوله قديماً وحديثاً لغوياً وأصولياً؛ إلا أن هناك غيابُ واضحُ للدراسات العلمية التي تفرده وتبيِّن أثره وتسهم في إثراء الفكر الإسلامي.

ومع الجنوح المادي الكبير في عصرنا هذا، تنشأ مشكلة ضعف التفكير والتعليل والتدبر وهذا له آثاره الوخيمة على المستويين الفردي والجماعي وعلى الأمة ونهوضها وتخلفها، ولا خلاص إلا عند المسلم الذي تتبلور لديه قناعاتٍ فكريةٍ، تدفعه للنهل من المنهج القرآني حول التفكير استمداداً واستهداءاً؛ مما يدفع إلى التعمق في دراسة الأسلوب وأدواته وموضوعه؛ للإفادة منه وعدم الاكتفاء بالتقليد للطرح السابق؛ وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي لتتبُّع آيات القرآن الكريم ذات الصلة، للكشف عن المواضيع التي استُخدم فيها أسلوب التعليل، وأهمية ذلك، مع الرجوع إلى تفاسير العلماء في ذلك، ثم اعتماد المنهج التحليلي، واستنتاج التطبيق الصحيح والمنهج السليم في التعامل معها، وأشير هنا إلى أن هذا البحث مستلاً من رسالتي العلمية (أسلوب التعليل في القرآن الكريم وأثره على العالم والمتعلم).

كلمات مفتاحية: أسلوب، التعليل، أدوات التعليل، التدبر، مواضيع التعليل

Meditation on Quranic Methodology of Justification and its Impact on The Text

Abstract

The purpose of this study is to achieve the mastery of one the miraculous methods of the Quran, which is the method of justification. In addition, to indicate the purpose of the frequent of its usage in the Holy Quran, specifically in some special places and important matters. Moreover, to deduce its impact on the Muslim. Therefore, it is observed that the approach that Allah has been used to establish Islamic doctrines, rulings, and obligations is the method of justification. Which the right way of thinking, building, development of the earth, are gained from. Despite the focus of Quranic discourse on it, and various studies were carried out about it in the olden day and nowadays, linguistically and fundamentally, there is still a clear absence of scientific studies that singled out it and its impact and its contribution to the enrichment of Islamic thinking. ؚAnd with the big physical delinquency in our time, the problem of weakness of thinking, justification and meditation arises, and this has its terrible effects on the individual and the Ummah entirely, as it has effects on its advancement and backwardness, and there is no salvation except in the Muslim who crystallizes his intellectual convictions that will push him to the Qur'anic approach to thinking, and help to study this style, its tools, and its theme in deep, to benefit from it and not merely to imitate the previous proposition. This study adopts the inductive method to trace the relevant verses of the Qur'an that related to the topic, in order to unveil the places which the method justification used, and its importance with reference to the interpretations of the scholars in it. The study also adopts the analytical method, and deduces the correct application and the proper approach in dealing with it. This research is derived from my dissertation titled (The Method of Reasoning in The Quran and its Impact on the Scholar and The Learner).

Keywords: Method, justification, tools of justification, meditation, and justification themes.

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وبعد!. فإنّ من أعظم النعم على هذا الإنسان أن أهداه الله قطرةً من بحر علمه الإلهي المبدع الزاخر بكل أنواع العلوم والمعاني والبيان والدروس والعبر والنكات واللفتات، لكن هذا الإنسان أعمته وأعيته زخارف الحياة الدنيا الخادعة فغرّته حتى ألبست عليه أمره وحملته لعشقها والركون إلى جنبها والتلذذ بشهواتها دون حدٍّ ولا قيدٍ حتى أتعبته وألقت به في مهاوي الرّدى. لكن رحمة الله هي الأوسع أن سخّر في كل زمانٍ ثلةٌ من العلماء والمجتهدين الذين فهموا وعرفوا قيمة هذا الكتاب فقضَوا حياتهم في خدمته، أيقنوا أنه منجى هذا الإنسان في الحياة وبعد الممات، يجد فيه منهجه في كل المجالات فكراً وسلوكاً، عقيدةً وشريعةً الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ. فقاموا باستنباط أحكامه وتفسير آياته وتتبُّع أساليبه وبيان العلل من أحكامه، حتى أُقيمت علوم الدين، وصنُّفت وشرحت وقُدمت للأمة على طبقٍ سائغٍ للفهم والتدبر والهضم.

وإن المتتبع لآي القرآن الكريم يلمس فيه العناية الكبيرة بأسلوب التعليل، والشمول في موضوعاته والتنوع في أدواته، التي وجهنا الله ﷻ إليه أثناء عرضه للسنن والعبر، والتشريعات والأخلاق وغالبية آياته، وكأنه يلفت نظر المسلم للعناية هو أيضاً بذلك، لهذا يُقبل عليه المسلم، اعتقاداً وفهماً وتمحيصاً ليتخذه منهجاً وسلوكاً، متأثراً بهذا الأسلوب من كثرة عرضه وتعلقه بكل المواضيع والسنن المبثوثة في القرآن الكريم.

وإن كان العلماء قديماً وحديثاً قد تناولوا هذا الأسلوب بالبحث إلا أن ذلك اقتصر على الجانب اللغوي والأصولي، وليس الفكري والسلوكي وإن التركيز الرباني على أسلوب التعليل بتلك الشمولية لكل المواضيع، والتنوع في الوسائل والأدوات؛ ليشير بشكلٍ بارزٍ إلى الأهمية والحاجة لوقفة بحثٍ وتدبرٍ؛ تتكشف من خلالها الغاية والمقصد من كل ذلك، وسيتوضح بإذن الله ﷻ ذلك من خلال هذا البحث، بالتركيز على أسلوب التعليل، وبيان أدواته وموضوعاته مع التمثيل عليها من أقوال المفسرين، ثم استنتاج آثاره في فكر وسلوك المؤمن المقبل على القرآن الكريم، والمخلص لربه.

مشكلة البحث

هناك غيابٌ واضحٌ للدراسات العلمية والمنهجية التي تُفرد أسلوب التعليل وتبيِّن أثر تناوله بكثرةٍ في موضوعاتٍ بالغة الأهمية وأثر ذلك على النص القرآني وعلى حياة المسلم، وبالتالي فقد جاءت هذه الدراسة لإفراد أسلوب التعليل تحليلاً واستنتاجاً، لبيان الغاية من كثرة استخدامه وأثره في حياة المسلم، وتسهم أيضاً في إثراء الفكر الإسلامي،

حدود البحث:

يتحدث البحث عن أسلوب التعليل في القرآن الكريم، وبيان معى الأسلوب ومعنى التعليل ومعنى التدبر، ثم استنتاج بعض المعاني التي يتعقبها المتدبر من خلال إدراج المواضيع التي ورد بها التعليل في القرآن الكريم، ليخلص منها إلى نتائج على المسلم في فكره وحياته حسب تنوع تلك المواضيع والمواضع.

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. توضيح المقصود بأسلوب التعليل في القرآن الكريم، وبيان أدواته وموضوعه.
2. استنتاج بعض المعاني التي يتعقبها المتدبر من خلال إدراج المواضيع التي ورد بها التعليل في القرآن الكريم.

3. إبراز منهج التفكير القائم بالتعليل، وعدم الاكتفاء بالتقليد والتلقي فقط؛ مما يلزم ويدفع إلى التعمق في دراسة معنى هذا الأسلوب وأدواته وأمثلته، ومواضيعه؛ للإفادة منه.

4. استنتاج أثر أسلوب التعليل في تميُّز المسلم بعقليته وشخصيته الإيمانية الواعية المدركة.

منهج البحث:

في هذه الدراسة للتدبر في موضوعات أسلوب التعليل القرآني أستخدم المناهج الآتية:

1- **المنهج الاستقرائي الناقص:** عن طريق هذا المنهج أتتبّع آيات القرآن الكريم ذات الصلة، للكشف عن المواضيع التي استُخدم فيها أسلوب التعليل، وأداته وموضوعه، مع الرجوع إلى تفاسير العلماء لبيان مدى اهتمام القرآن الكريم بذلك في شتى المواضيع، وتتبع أعمال العلماء حوله واستخراجها وتصنيفها.

2- **المنهج التحليلي والنقدي:** يتبع هذا المنهج لتفسير الآيات ذات الصلة بأسلوب التعليل، ونقد التطبيق الخاطئ لها، واستنتاج المنهج السليم في التعامل معها. للكشف عن مفهوم اسلوب التعليل وأدواته، في بعض المواضيع وفي بعض المواضع وفيما توصلت إليه من فوائد وغايات، لربط ذلك بفكر وسلوك المسلم.

3- **المنهج الاستنتاجي:** بعد الاستقراء للآيات وتحليلها، وبعد ذلك تستنتج آثار التدبر لها، وأثر أسلوب التعليل على النص وعلى حياة المسلم.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات أغلبها نحوية حول أسلوب التعليل في القرآن الكريم من حيث أدواته وطرائقه وأمثلته. وهناك بعض الدراسات الفكرية في هذا الموضوع ولكن من جانب أصول الفقه، وهو غير الجانب الذي أطرحه منها:

التعليل بالأسماء الحسنى في القرآن الكريم وأثره في المقاصد القرآنية، للدكتور محمد بن داود تمزغين[1]. في هذه الدراسة، عرَّف الباحث أسماء الله الحسنى، والتعليل، والمقاصد، ثم شرح عن أدوات التعليل بأسماء الله الحسنى، ووجوه التعليل بأسماء الله الحسنى، والأسماء المعلل بها في القرآن الكريم، واستنتج في نهاية بحثه أثر التعليل بالأسماء الحسنى على مقصدي التعقل والتزكية ، فالقرآن إذ يعلل ويُظهر الحِكَم والروابط إنما يقوم بتشكيل عقلية المسلم وتدريبه على تتبع الحِكَم، ويعلِّمه أن لا يقبل دعوى بلا برهان، وأن يبتعد عن التقليد.كما استنتج أن التعليل وجه من أوجه تفسير القرآن الكريم الذي به يزداد المسلم عُمقاً في فهم آي القرآن الكريم، كما أنه طريقٌ لمعرفة مقاصد القرآن التي يسعى المسلم إلى تحقيقها في حياته، كما لفت الانتباه إلى كثرة التعليل بأسماء الله الحسنى في القرآن الكريم، سواءٌ في فواصل الآيات أو أثناء ذكر حُكمٍ أو بيان حَدَثٍ. يتضح مما سبق أن الباحث لم يتعرض للتدبر في موضوعات أسلوب التعليل القرآني، وهذا ما تناولته هذه الدراسة.

أساليب التعليل في القرآن الكريم دراسة أسلوبية أصولية، للدكتورة أمينة سعدي[2]. في هذه الدراسة مسالك جديدة في التعليل من خلال التفاسير والشروح. وقد كان الغرض من تناول هذا الموضوع؛ هو صرف نظر الباحث إلى وجود ثروةٍ

1 تمزغين، محمد بن داود، التعليل بالأسماء الحسنى في القرآن الكريم وأثره في المقاصد القرآنيه، (كوالالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، 1413هـ/2013م).

2 السعدي، أمينة، أساليب التعليل في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية وأصولية (المغرب: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، إشراف أحمد أبو زيد،1420هـ/1992م).

كبيرةٍ من التعليلات صرَّح بها أو نبَّه عليها المفسرون وشُرَّاح الحديث النبوي، وبنوا عليها الكثير من استنباطاتهم واجتهاداتهم وتفسيراتهم، دون أن تقع الإستفادة منها في الدراسات الأصولية، في مباحثها المتعلقة بالتعليل ومسائله. وقد عرضت الباحثة ما كشفت عنه أمهات التفاسير وشروح الحديث النبوي من طرق ومسالك يُؤدَّى بها معنى التعليل، وحصرت ذلك في نموذجين اثنين: أولهما التعليل بأسباب النزول والورود، وثانيهما، التعليل بالنص الشرعي، وفيه الكشف عن وجوه العلل والمصالح والوقوف عند قصد الشارع من تشريع الحكم، وهو إضافةً واستكمالاً لما قد يكون الأصولي غافله والمفسِّر والشارح مثبِّته. يظهر مما سبق أن الباحث لم يتعرض للتدبر في موضوعات أسلوب التعليل القرآني، وهذا ما تناولته هذه الدراسة.

التعليل في القرآن الكريم (دراسة نحوية)، للدكتور سعيد بن محمد بن عبد الله القرني[1]. عُني الباحث في هذه الرسالة بدراسة جميع الوسائل التي تُؤدَّى بها وظيفة التعليل داخل الجملة أو التراكيب؛ بأيِّ أداةٍ من أدوات التعليل المعروفة ؛ حرفا كانت أم إسماً، أو بغير أداةٍ تؤديها كما في التعليل بالجملة، والمعول في ذلك السّياق الذي حمل تلك العلة؛ لتعيين الوسيلة. فقام باستقراء تراكيب التعليل في القرآن الكريم، ثم صنَّفها ووزعها على مباحثها المختلفة وفق خطة البحث مرتبة على ترتيب السور، ومواضع الآي منها، ثم تمَّ دراستها، وعيَّن عليَّة الأداة، ومتعلقها إن كانت حرفاً، والعامل فيها إن كانت اسماً، متبعاً طريقة عرض أقوال المفسرين والنحاة فيها، لاستنباط معناها من أقوال المفسرين إذا عدمت التوجيه النحوي. مع الاستعانة بالقراءات القرآنية، متواترها وشاذِّها لتوجيه معنى الأداة، أو قرائن أخرى. يتضح مما سبق أن الباحث لم يتعرض للتدبر في موضوعات أسلوب التعليل القرآني، وهذا ما تناولته هذه الدراسة.

أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن الكريم، للدكتور يونس عبد مرزوك الجنابي[2].في هذه الرسالة، تناول الباحث الظواهر اللُّغوية، وحاول إيجاد علَّةٍ لكل ظاهرةٍ، فللمرفوع سببٌ وللمنصوب علَّةٌ وللمجرور غايةٌ وللمجزوم هدفٌ. غير أن العرب لم تعلِّل كلَّ ما قالته، إنما تصوَّرَ النُّحاة أن العرب إنما قالت ما قالته لِعلَّةٍ يضعونها هم أنفسهم؛ فقد تكون ما أراده العرب وقد لا تكون. والكلُّ يعلل بما يراه عِلَّةً، وبذلك تختلف العلل باختلاف واضعها وبحسب تفسيره لما يراه، إذ تتعدد الأحكام وتكثر الآراء. وقد تحدث الباحث عن العلة والتعليل عند النحويين والمناطقة والفلاسفة، ثم عن العلة والتعليل في السياق القرآني. ثم عن اللام وهي أهم باب التعليل والأصل فيه، وعن التعليل بالحروف(الأدوات)، وعن التعليل بالأسماء(المفعول به)، وعن التعليل بوسائل وطرائق أخرى. يتضح مما سبق أن الباحث لم يتعرض للتدبر في موضوعات أسلوب التعليل القرآني، وهذا ما تناولته هذه الدراسة.

خطة البحث وهيكله العام:

المقدمة

مشكلة البحث

أسئلة البحث

1 القرني، سعيد بن محمد بن عبد الله، التعليل في القرآن الكريم دراسة نحوية، (بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في النحو والصرف، المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع اللغة والنحو، إشراف الأستاذ الدكتور مصطفى إبراهيم علي عبد الله، 1421هـ/1993م).

2 الجنابي، يونس عبد مرزوك، أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن الكريم، (بغداد: كلية الآداب، جامعة بغداد، 1424هـ/2003م).

أهداف البحث

أهمية البحث

حدود البحث

منهج البحث

الدراسات السابقة

الهيكل العام للبحث

المبحث الأول: التعريف بأسلوب التعليل القرآني وأدواته

المطلب الأول: مفهوم أسلوب التعليل لغةً واصطلاحاً

المطلب الثاني: أدوات أسلوب التعليل في القرآن الكريم

المبحث الثاني: فوائد التدبر في الموضوعات المعللة

المطلب الأول: التعريف بالتدبر وكيفيته

المطلب الثاني: العلة من التعليل القرآني في موضوعاتٍ شامله

المطلب الثالث: فائدة التعليل في العقيدة

المطلب الرابع: فائدة التعليل في الأحكام الشرعية

المطلب الخامس: فائدة التعليل في الأخلاق

المطلب السادس: فائدة التعليل في أسماء الله الحسنى

الخاتمة: النتائج والتوصيات

المصادر والمراجع

المبحث الأول

التعريف بأسلوب التعليل في القرآن الكريم

يندرج أسلوب التعليل في القرآن الكريم ضمن مجموعةٍ من الأساليب الأخرى، والتي تفصح عن منزلة هذا الكتاب العظيم، وعلوِّ شأنه، فكأنه يأتي ضمن سلسلةٍ لا تكتمل إلا بربط كل حلقةٍ بأخرى، تتقوَّى بها وتقوم عليها؛ فلا قيام لأيِّ حلقةٍ إلا باعتمادها على الأخرى لإتمام السلسلة.

ومن أجل معرفة المقصود بأسلوب التعليل؛ فلا بد من توضيح المعنى اللغوي لألفاظ "الأسلوب" و"التعليل"، والمعنى الاصطلاحي.

معنى الأسلوب لغةً واصطلاحاً

الأسلوب في اللغة:

جاءت كلمة أسلوب من الفعل سلَب، ويقال للسطر من النخيل أسلوب. وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. فهو الطريق، والمذهب، ويُجمع أساليب. والأسلوب بالضم: الفن، يقال: أُخذ فلان في أساليبٍ من القول أي أفانين منه[1]. والسلَبُ، بالتحريك: المسلوب، وكذلك السليب. والسلَب أيضاً: لحاء شجرٍ معروفٍ باليمن، تُعمل منه الحبال، وهو أجفى من ليف المُقْل وأصلب. وبالمدينة سوقٌ يقال له سوق السلَّابين[2].

من ذلك يظهر لنا أن معاني: سطرٍ، وطريقٍ، وامتدادٍ، ومذهبٍ، وفنٍ؛ يجمعها معنىً واحداً فيه نفعٌ بطريقةٍ مميّزةٍ، وهذا ما سنلاحظه في المعنى الاصطلاحي. ولما كان الأسلوب هو طريقةٌ تشمل كل العلوم دينيةٍ كانت أو دنيويةٍ؛ فقد تعددت تعريفاته له حتى في المبحث الواحد الذي يتعلق باللغة.

الأسلوب اصطلاحاً:

تنوعت التعريفات وكثرت لمصطلح الأسلوب، وذلك حسب الموضوع الذي يُبحث فيه، مثال تعريف ابن خلدون: هو " قالبٌ تنصبُّ فيه التراكيب اللغوية، وبهذا يتميز عن تلك التراكيب اللغوية، وعن البلاغة والبيان وعن العروض؛ فالتراكيب اللغوية هي مادة الأسلوب، وعلما البلاغة والعروض يدرسان خصائص هذه التراكيب، غير أن الأسلوب شيءٌ أبعد من هذا كله؛ إنه طريقة صياغة الكلام وعملية هندسةِ القوالب التي يُصبُّ فيها الكلام"[3]. هذا التعريف هو الأقرب لأداء الغرض؛ لاستخدامه لفظ التراكيب اللغوية التي تنصبُّ في قالبٍ، وهو يوحي بالشمول.

إن التعريف اللغوي لأصل الكلمة متضمنٌ للمعنى الاصطلاحي؛ فالسطر في النخل هو طريق، وهو أسلوبٌ؛ لأنه يمتد، وظاهرٌ، وله وجهته، وأُخذ للمعنى الاصطلاحي لأنه طريقةٌ تستخدم ولها وجهةٌ محددةٌ ظاهرةٌ. وفيها أيضا فنٌ؛ لأن هذه الطريقة هي لتحقيق غرضٍ ما؛ من ذلك يظهر لنا أن طريقة صياغة الكلام والهندسة المستخدمة تتناسب مع المعنى والهدف الوارد في

1انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط1، 1419ه/1999م)، مادة (س. ل. ب)، ج 6، ص 319.

2انظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، أحمد عبد الغفور عطّار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1990م)، قال ابن الأعرابي: فنَشنَش الجلد عنها وهي باركةٌ كما تُنشنِش كفًّا قاتلٍ سَلَبَا، رواه الأصمعي، ج1، ص149.

انظر: ابن خلدون، المقدمة، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت)، ص11. 3

السياق ليناسبه، وهنا يكمن الفن؛ يعني كلما كان الأسلوب على درجةٍ رفيعةٍ من الهندسة والفن؛ كلما أدَّى ذلك إلى تحقيق الهدف من إيراده.

ومن خلال الدراسات المتعلقة بالأسلوب يتبيَّن اختلاف المنهج حول التعريف، والتصنيف، والآثار الناشئة من الأخذ به وتطبيقه، وغير ذلك من الآراء المتعلقة به "ولو عرضنا للتفسيرات الحديثة للغربيين والعرب نرى أنه لا يزال البحث مستمراً حول مفهوم الأسلوب"[1]، ذلك انه يُستخدم ليشمل كل العلوم الإنسانية وعلوم الدين والدنيا؛ "والظاهر أن المتأخرين قد توسعوا في الاطلاق فشمل الاطلاق كل الكيفيات التي تكون متغيرةٌ. وهو المعنى الدقيق لكلمة أسلوبٍ حديثاً والأَولى أن تُخصُّ به"[2]. لذا تحدد معنى الأسلوب وتنوَّع حسب المجال الذي قد يرد فيه.

معنى التعليل لغةً واصطلاحاً

التعليل في اللغة:

كلمة التعليل من "العِلُّ والعِلل، الشربة الثانية، يقال علٌّ بعد نهل. والتعليل سقيٌ بعد سقي وجني الثمرة مرةً بعد أخرى"[3]. "وعَلَّه يعُلُّه ويَعِلُّهُ، إذا سقاه السُّقية الثانية. وعلَّ بنفسه، يتعدّى ولا يتعدّى. وأعلَّ القومُ: شربت إبلهم العلل. وعلَّ الضاربُ المضروب، إذا تابع عليه الضرب. وأعلَتْ الإبل، إذا أصدرتها قبل ريِّها. والعِلَّة المرض"[4]. "والعِلَّة: سبب الشيء"[5].

يتبين مما سبق وجود عدة معانٍ لكل من التعليل والعلة، وهما محور هذا البحث، فالتعليل فيه:

أولاً: كلَّ معاني التكرار، والإعادة، والمعاودة، كالمرض، أو الانشغال بهذا الأمر أو الشيْ الذي هو موضع الفعل، حتى يصل إلى؛ نتيجةٍ.

ثانياً: فيه معنى: نتيجةٍ أو أثرٍ، أو جنيٍ، بعد كلِّ ذلك الانشغال.

ثالثاً: كذلك العلَّة يظهر أن لها معاني: العذر والسبب، أي يُقال لكل معتذرٍ أن عنده علَّة، وكذلك لكل معتلٍ أيضا، أن عنده علةً، تلك المعاني تدلل على أن كل فعلٍ واقعٍ له سبب، أو غرضٍ يُساق من أجلهما، فلا يوجد فعلٌ بدون أن يكون له علَّةٌ أو سببٌ، ذلك حتى يوضِّح القصد من تحصيل الحكم، أو ليفسِّر حدوثه، أو غايته. وهذا يدخل في المعنى الاصطلاحي كالآتي:

التعليل اصطلاحاً:

وردت تعريفاتٌ كثيرةٌ للتعليل اصطلاحاً، وذلك إما في الموضوع الواحد، أو بسبب اختلافها؛ سواء في علم البلاغة والبيان، أو علم النحو، أو علم أصول الفقه، وسأعرض هنا جانباً منها كالآتي:

هو "بيان العِلَّة أيا كانت صورة البيان؛ سواء كان التعليل بواسطة المفعول لأجله، أو بالجر، أو بواسطة "لعلَّ" أو بأية وسيلةٍ أخرى"[6]. وعند الأصوليين: التعليل هو:" تبيين علة الشيء، ويطلق عندهم كذلك على ما يُستدل فيه بالعلَّة على المعلول، ويسمَّى برهاناً لَمِّيًا ، ويراد به بيان العلل، وكيفية استخراجها. وهذا قد يكون لأجل القياس، وهو ردُّ فرعٍ إلى أصل، لمساواته

1 انظر: أبو ملحم، علي، فن الأسلوب الأدبي، (بيروت: المكتبة العصرية، د.ط، 1968م)، ص 5-10.

2 هلال، هيثم، معجم مصطلح الأصول، مراجعة وتوثيق، الدكتور محمد التونجي، (بيروت: دار الجيل، ط1، 1424هـ/ 2003م)، ص 28.

انظر: ابن منظور، مرجع سابق، مادة (ع.ل.ل)، ج 6، ص 365. 3

4 الجوهري، مرجع سابق، ج5، ص41- 42.

5 يعقوب، أميل بديع، موسوعة علوم اللغة العربية، (بيروت: دارالكتب العلمية، ط1420،2هـ/ 2000م)، ص452.

6 حسان، تمام، البيان في روائع القران، (القاهرة: عالم الكتب، ط2، 1420هـ/ 2000م)، ص 161.

في علة حكمه. وقد يكون لغير ذلك "[1]. فالعلّة والتعليل عليهما مدار النقاش والخلاف عندهم[2]. وعند النحويين: "هو إظهار العلة في كل حكمٍ إعرابي أو بنائي، ويسمَّى السببية"[3].

إن المعنى اللغوي متضمِّنٌ للمعنى الاصطلاحي؛ ذلك أنه من عَرَف العِلّة والسبب فقد نهل منها، كعَلٍ بعد نهلٍ، أي سقيٍ وارتواءٍ بعد عطشٍ، والعطش هنا بمعنى الجهل، والرجوع إليه يتبيَّن السبب أو العِلّة، كأنه تفكَّر واستفاد بعد المعاودة للعلة التي هو في الأغلب بحاجةٍ للفهم والفقه لها.

مفهوم أسلوب التعليل:

ليس من السهل وضع اليد مباشرةً على معنى هذا المصطلح؛ وعلى وجه الخصوص في مؤلفات القدامى من العلماء في التفسير وأصول الفقه، أو النحو والبلاغة والبيان؛ بسبب إدراجه ضمن أدواته تحت أبواب الحروف. أما حديثاً فقد أفردته الدراسات، لكن بصورةٍ تكاد تكون متواضعةٍ، قياساً مع مصطلحات أخرى، لها الزخم في الطرح والنشر. ومصطلح" أسلوب التعليل" عند العلماء القدامى قلَّ ما ورد، ببحثٍ منفردٍ وغالباً ما ورد ضمن أدوات التعليل؛ ببيان معاني وصفات الحروف، أو ضمن أسلوب التوكيد عند الزركشي[4]،أو أُدرج في أبوابٍ نحويةٍ وبلاغيةٍ مختلفةٍ، كباب التعليل، أو بيان العلة، أو السببية وغيرها. بخلاف الدراسات العصرية؛ فإن المتتبع لها سيلحظ اضطراداً جليَّاً في استخدام هذا المصطلح، وأيضاً في الدراسات الأصولية الفقهية. ويمكن تعريفه بأنه: الطريقة الفنية الخاصة التي تُسلك لبيان العِلّة أو السبب لأمر ما لتحقيق غاية ما. بل إن الفائدة المؤدَّاة من خلال أسلوبٍ ما هي تتعدى الفوائد المجتباة من خلال التراكيب اللغوية، كالبلاغة وبالبيان، والبديع وغيرها.

أدوات أسلوب التعليل:

يكون التعليل في القرآن الكريم بالأدوات أو بالاسم، أو بالمفعول به، وقد يُفهم التعليل من بعض الجمل والألفاظ في سياق الكلام، كجملة صلة الموصول، أو من سياق الكلام، وقد ترد في معرض النص ألفاظ تبين العلة فيكون ذكر العلة شرحاً وتفصيلاً لها مثال؛ لأجل ، من أجل، وما هو بنفس المعنى، وقد يكون مجازيا وهو ما يسميه البلاغيون حسن التعليل؛ إذا كانت العلة المدّعاة للمعلول ليست حقيقية وليست في الواقع. والأدوات يقصد بها[5]: "الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، ومعرفة ذلك يكون من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها[6]. وحروف

---

1 شلبي، محمد مصطفى، تعليل الأحكام، عرض وتحليل لطريقة التعليل وتطوراتها في عصور الاجتهاد والتقليد، (بيروت: دار النهضة العربية، ط2، 1401هـ/ 1981م)، ص 4-12.

2 الأصولي: نسبة إلى "أصول الفقه" ويراد به من عرف القواعد التي يُتوصّل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفروعية، ولا تصحُّ هذه النسبة إلا مع قيام معرفته بها وإتقانه لها، كما أن من أتقن الفقه يسمى فقيهاً، ومن أتقن الطب يسمى طبيباً. هلال، مرجع سابق، ص 34-35.

3 الأسمر، راجي، المعجم المفصل في الصرف، مراجعه، الدكتور إميل بديع يعقوب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/ 1993م) ص188، 189. "السببية: هي تبيين لما يتسبب من أمرٍ يكون بموجب ذلك سبباً، أما التعليل فهو تبيينٌ أو ذكرٌ لعلّة الشيء، والفرق بينهما لا يُبعد السببية عن التعليل فهي تتضمّنه تضمُّناً إذ إن فيهما ذكر علةٍ ومعلول". انظر: عباس، أحمد خضير، أسلوب التعليل في اللغة العربية، (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الآداب، بغداد: كلية الآداب، الجامعه المستنصرية، 1999م)، ص130.

2 الزركشي، بدر الدين بن محمد بن عبد الله بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، دط، 1378هـ/1957م) ج3، ص102.

5انظر: عباس، مرجع سابق، ص 21-150.

6 انظر: السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م)، ج2، ص166.

التعليل التي وردت في القرآن الكريم هي: اللام، كي، الباء، الفاء، مِن، لعلَّ، في، عن، حتى، على، الكاف، إنَّ، والتعليل بما يحتمل الحرفيَّة والإسميَّة كإذ، ولن أخوض في خلاف النحويين حولها وأكتفي بعرض رأيٍ واحدٍ ولبعض الحروف فقط.

حرف اللام: وهي اللام التي تدخل على الفعل المضارع، فتنصبه ويكون ما قبلها علة لما بعدها، ولا تكون إلا بعد كلامٍ تامٍ[1] تعني لأجل ذلك، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾: [البقرة: ١٨٨]، ﴿**لِتَأْكُلُوا**﴾ دخلت لام التعليل هنا على الفعل المضارع، أي من أجل أن تأكلوا. قال ابن عاشور: "لا تدفعوا أموالكم للحكام لتأكلوا بها فريقاً من أموال الناس بالإثم؛ فالإدلاء بها هو دفعها لإرشاء الحكام ليقضوا للدافع بمال غيره، فهي تحريم للرشوة وللقضاء بغير الحق، ولأكل المقضي له مالاً بالباطل بسبب القضاء بالباطل"[2]. جاء التعليل هنا في معرض الكلام عن رشوة الحاكم، أي معاملات الناس المالية، وكذلك السياسية، وإن الإفصاح عن العلة في ذلك؛ يبين مدى الظلم الواقع نتيجة هذه الرشوة، وفيه تحذيرٌ للراشي والمرتشي، مهما كانت منزلته، فبالتعليل ترتدع النفس؛ فالله مطَّلعٌ على أفعال العباد ونياتهم.

حرف كي[3] قد يكون الحرف (كي) حرف جر، يفيد التعليل، و(كي) هنا مصدرية نصبت بنفسها الأفعال، ولا يجوز – عند معظم النحاة وتكون (كي) حرف جر مع وجود لام التعليل؛ لأنها ستكون للتعليل؛ وحرف التعليل عندهم لا يدخل على حرف تعليل، كما أن حرف الجر لا يدخل على مثله، ولعل الأرجح والأنسب أن تكون (كي) مفيدة للتعليل على كل حال، إذ أنها أينما كانت، كان ما بعدها علةً لما قبلها سواءٌ دخلت عليها اللام أم لم تدخل، أو ذكرت بعدها (أن) أم لم تُذكر، ولا فرق بين (كي) الناصبة و(كي) الجارة في المعنى؛ ومثاله في قوله تعالى: ﴿**كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾: [الحشر: ٧][4]، "لا" نافيةٌ زائدةٌ هنا. يقول الزمخشري: كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يُعطى الفقراء ليكون لهم بلغةً يعيشون بها جداً بين الأغنياء يتكاثرون به[5]. أي أي أن تشريع الصدقات لمستحقيها هو من أجل أن لا يُقتصر تداول المال بين شريحةٍ واحدةٍ في المجتمع وهي شريحة الأغنياء أو الحكام. وهنا تعليل أمرٍ يتعلق بالعبادة المالية.

حرف الباء: وتسمى الباء السببية أو باء التعليل، وهي باءٌ مفردةٌ غير زائدةٌ[6]،وقد ذكر النحويون للباء اربعةً وعشرين معنىً من بينها التعليل،قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ**﴾ [البقرة: ٥٤]، فالباء هنا داخلةٌ

1 انظر: الشريف، محمد حسن، معجم في حروف المعاني في القرآن الكريم، (د.م: الرسالة، د.ط، 1417هـ/ 1996م)، ص815.

2 ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر ،1984مـ)، ج2، ص187.

3 "بعض العرب يجعل كي بمنزلة حتى، وذلك أنهم يقولون: كيمه في الاستفهام، فيُعملونها في الأسماء كما قالوا حتى مه، وحتى متى، ولَمَه. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قَنبر، الكتاب، كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون،(مصر: مكتبة الخانجي، مطبعة المدني،ط3، 1412هـ/ 1992م)، ج3، ص6.

4 انظر: عباس، مرجع سابق، ص 69-70.

5انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط1، 1418هـ/1998م)، ج6، ص78.

6 المالقي، أحمد بن عبد النور، رصف المباني، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، (دمشق: دار القلم، ط2، 21405هـ/ 1985م)، ص220-222.

على السبب؛ إذ أنَّ ظلمهم أنفسهم مسبَّبٌ من اتخاذهم العجل، أي: ظلمتم انفسكم بسبب اتخاذكم العجل[1]. والتعليل هنا يتعلق بالتعبد لغير الله، ويؤدي لظلم النفس.

حرف الفاء: الفاء المفردة لها في الكلام ثلاثة مواضع، ومنها الفاء لتعليل؛ التي تفيد السببية في أغلب مواضعها؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ [الكوثر:1-2]،هنا لا يصح عطف جملة ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**﴾ على جملة ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ ، اذ لا يصح عطف الخبر على الإنشاء ولا الإنشاء على الخبر. فلم تُفد العطف وأفادت السببية، إذ أن إعطاء الله ﷻ الكوثر للرسول الكريم ﷺ سبباً للصلاة والنحر أو للأمر بهما[2].

تبين أن التعليل يؤدي غايته بأي أداةٍ، وبما يناسب الموضوع، لإبراز العلة والإفادة منها؛ فلو لم يعلل اللهﷻ دفع المال للحكام؛ لما تُبيَّنت الرشوة، وتعليل تشريع الصدقات أفاد في نبذ الطبقية في المجتمع، والقضاء على الفقر، وكذلك قد علل لهم سيدنا موسى عليه السلام ظلمهم؛ ليرتدعوا عن الشرك، كما علل إعطاء الكوثر للرسول ﷺ لصلاته ونحره. وكل ذلك يفيد المسلم؛ فيعي تلك العلل ويتفكر فيها فيلتزم.

وخلاصة ما سبق:

1- على الرغم من تعدد المعاني للأصل اللغوي للفظ "أسلوب"، إلا أنه يمكن القول أنها تتمحور كلها حول معنىً واحداً وهو: كل ما فيه نفعٌ من خلال طريقةٍ مميزةٍ. وقد اختلفت التعريفات وتعددت له، بل ما زال الباب مفتوحاً لاجتهاداتٍ وأبحاثٍ تتناوله بكل صيَغه ك"الأسلوبية" وغيرها؛ ذلك أنه لازمٌ لكل العلوم قديمها وحديثها، بكل تخصُّصاتها، وبذا يكون خاضعاً للتجديد والتغيير ضمن ضوابط محدَّدةٍ خاصةٍ بنوع العلم الذي يتناوله. وإن هذا له أكبر الأهمية في الدراسة هنا، بسبب أن ذلك يفتح مجالاً رحباً للإستدلال- عن طريق هذا الأسلوب- على معانٍ فكريَّةٍ وسلوكيَّةٍ؛ وعلى الرغم من تعدد المعاني للأصل اللغوي للفظ "تعليل"، وكذلك تعدد التعريفات الاصطلاحية له وفي كل المجالات والعلوم، إلا أنه يمكن الاستنتاج؛ أنها تتمحور حول فكرةٍ واحدةٍ متضمِّنةٍ لمعنى (المعاودة من حالٍ إلى حالٍ مع الإنشغال بذلك الموضوع، حتى يصل إلى نتيجةٍ وسببٍ أو أثر). وإن لفظ "علةٍ" بكل معانيه يلاحظ أنه يرجع لمعنى " السبب"، و"العذر" وفي المعنيان الرجوع والانشغال. كما يُستنتج من معنى لفظ "علةٍ"؛ أن لكل فعلٍ واقعٍ سببٌ أو غرضٌ يساق من أجلهما، ولا يوجد فعلٌ بدون أن يكون له علَّةٌ أو سبب؛ ذلك لتوضيح القصد أو الحكم، أو لتفسير حدوثه أو وجوده وغايته.

2- معاني تلك المصطلحات كان لها علاقةً كبيرةً مع أهداف هذه الدراسة؛ حيث أن كل معانيها من: الطريقة المميزة، والعلَّة، والسبب، والانشغال والمعاودة؛ هي معانٍ يحتاجها المسلم في بناء حياته؛ ليكون مؤديًّا الأمانة التي أُنيطت به في إعمار هذا الكون وحمل رسالة الإسلام مع الانتفاع بكل ما سخَّر الله ﷻ فيه لخدمته. فالتعليل نوعٌ من أنواع التثبت والتأكيد ورد بكثرةٍ في آي القرآن الكريم، ويتضمن الأدوات أي؛ الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، ومعرفة ذلك يكون من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها وحروف التعليل التي وردت في القرآن الكريم هي: اللام، كي، الباء، الفاء، من، لعلَّ، في، عن، حتى، على، الكاف، إنَّ، والتعليل بالإسم؛ بالمفعول له، كما

1 انظر: عباس، مرجع سابق، ص 38-39.

2 انظر: المرجع نفسه، ص 46-49.

ورد التعليل بما يحتمل الحرفيَّة والإسميَّة كإذ، والتعليل بالجملة. وقد تعددت آراء النحويين حول هذه الحروف في تصنيفها وإعرابها وتعلقها.

المبحث الثاني

فوائد التدبر في الموضوعات المعللة

للكشف عن أسلوب التعليل ومن ثم القيام بسبر دلالته وما يؤول إليه والإفادة منه والتأثر به، فإنه يلزم إدامة التدبر في آي الذكر الحكيم، وقبل استنتاج دور ذلك التدبر للتأثر بأساليب القرآن الكريم، أبين مفهوم التدبر.

التعريف بالتدبر وكيفيته

معنى التدبر لغة: أصلها يرجع إلى الفعل الثلاثي دَبر أي تبع، ودبره يدبُره دبوراً: أي تبعه من ورائه، ودبُر كل شيْ: عَقِبه ومُؤخّره، والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، والتدبّر: التفكر فيه[1].أي عقب الشيء أو ما يؤول إليه.

معنى التدبر في الاصطلاح: عرّفه الإمام الجرجاني بأنه: "عبارةٌ عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب"[2]. لكن حبنكة الميداني اعتبره تفكراً في تعريفه بأنه: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[3]. يلاحظ أن المعنى الاصطلاحي لم يختلف عن المعنى اللغوي السابق، وهذا أيضا كما ورد في تعريف المفسرين له كالإمام ابن عاشور حيث بيّن أن أصل تدبر القرآن من النظر في دُبُر الأمر أي فيما لا يظهر للمتأمل ابتداءاً، ثم هو لم يفرق بينه وبين التفكر حيث عرّف تدبر القرآن بأنه: التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وذلك بإعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له، فالمتدبر يتعقب ظواهر الألفاظ القليلة ليعلّم ما يُدبِر ظواهرها من المعاني الكثيرة المكنونة، والتأويلات اللائقة[4]. ويتّضح ذلك من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّـهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء:82] أنهم لو تدبروا قول القرآن لعلموا أنه الحق بدلالة إعجازه وبصحة أغراضه، فاستمرار عنادهم لأنهم لم يدّبروا القول، وهذا أحد العلل التي غَمَرت بهم في الكفر[5]. ولمّا كان التدبر فيه تأملٌ لآيات القرآن الكريم من أجل الاتعاظ وأخذ العبرة، والتفكر، واستنباط معانيه التي خفيت؛ فهو إذاً يعمّ العلماء وغيرهم، لكن العلماء فقط لهم حق الاستنباط[6].

وحتى يحقق التدبر أهدافه فقد ذكر العلماء عدة أمورٍ تلزم المسلم في ذلك كقيام المتدبّر بحصر فكره وحضور قلبه والخشوع والتأثر باستشعاره أن القرآن يخاطبه، وأيضاً ملاحظة البعد الواقعي لموضوع الآيات؛ بحيث يجعل من الآية منطلقاً لعلاج حياته وواقعه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به.

---

1 انظر: ابن منظور، مرجع سابق، ج4، ص273.

2 الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف، معجم التعريفات، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، (مصر، دبي: دار الفضيلة، د.ط، د.ت) ، ص54.

3 الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل تأملات، (دمشق: دار القلم، ط1، 1400ه/1980م)، ص4.

4 انظر: ابن عاشور، مرجع سابق، ج23، ص29و ج18،ص87.

5 انظر: المرجع نفسه ، ج18، ص88.

6 الاستنباط: استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة. الجرجاني، مرجع سابق، باب الألف، (أ.س)، ص 22.

ومن أهم الأمور المعينة على التدبّر النظرة التفصيلية في سياق الآية بعد الوقوف أمامها وقفةً متأنيةً فاحصةً من حيث ترتيلها، وتركيبها، ومعناها، ونزولها، وغريبها، ودلالاتها؛ مما يتطلب الإلمام بقدرٍ من علوم اللغة وقواعدها، وهذا له أثره الكبير في الفهم وسرعة التدبر وسلامة النتائج [1].

وقد أوضح بعضهم عدّة قواعد للتدبر وأسهب فيها؛ كارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرّق في القرآن، فالمتدبر عليه أن يبحث ويتأمل حتى يكتشف المناسبة أو الغرض التعليمي أو التربوي ضمن المنهج التعليمي التربوي القرآني العام، ومراعاة وحدة موضوع السورة القرآنية، وغيرها من القواعد[2].

هذا يعني أن المتدبّر عليه السعي إلى طرح كل سبل الفهم، والحرص على التعرض بالشرح والاستنتاج للأساليب البيانية على ذلك، فيبذل جهده لتقريب المعنى له من غير إكثارٍ لا يحتمله الذهن. تلك النظرة الفاحصة العميقة لتركيب الآية وما فيها من علوم اللغة وأساليب البيان واستنتاج دلالاتها وما ورائها، وما يعني ذلك وما يعقبه في فكر وسلوك المتدبر في حياته؛ له الدور الأكبر في التعرض لأسلوب التعليل بالبحث والشرح والتنقيب والتمحيص؛ وبالتالي التأثر به.

وعليه فإن التدبر هو مهمة المسلم، فبعد التوصل إلى معرفة المراد من المعنى ضمن أسلوب التعليل، فإن ذلك المعنى وُجد من أجل أن يرجع عملياً في السلوك، فيتأثر المسلم بالمراد من الآية بعد تدبرها، حتى يكون أسلوب التعليل طريقة له في الحياة.

العلة من التعليل القرآني في موضوعاتٍ شامله

ظهر التنوع في موضوع التعليل في الآيات السابقة مع الأدوات: اللام، وكي ، والباء، كمواضيع المعاملات المالية، والأمور السياسية، وأمور العبادة. ويمكن استنتاج العِلَّةَ من الإتيان بهذا الأسلوب في الوقت المناسب، وفي المكان المناسب ليس في مواضع قليلةٍ، بل في الكثير من آي القرآن الكريم، والأمر الملفت للنظر هنا؛ أن الموضع الأول الذي جاء به هذا الأسلوب هو في أول ما تنزّل من القرآن الكريم على المصطفى ﷺ والذي فيه تعليلٌ، قال تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾ [العلق:6-7] ﴿**أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾ علة ليطغى؛ أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً"[3]. لقد ساق الله ﷻ هذا الأسلوب في أول آياتٍ نزلت؛ فَعِلَّة ظلم الإنسان، وطغيانه، ورفضه للحق؛ هو استغراقه في الماديات، وغرقه في الترف والشهوات، وإذا علم المسلم هذه العلَّة، بتفكيره المستنير الجاد، لكان ذلك دافعاً له للحذر منها، محاولة منه للإقبال على الله ﷻ والتعرف على نعمه وشكرها بالخضوع والعبادة، إذاً المسلم يستخدم عقله، فيكون حاضر الذهن دائماً. كما أنه من الجدير بالذكر هنا التنبيه على أن استخدام "لام التعليل" كان هو فقط المناسب لتحقيق المعنى المراد للسياق الذي بدأت فيه الآيات، ولا تنفع أداةٌ غيرها.

ويظهر ذلك أيضاً بصورةٍ أوضح من خلال تعليل سبب استخدام القرآن الكريم لهذا الأسلوب في التعليل وبأداة "اللام" في هذا التفسير: "الطغيان هو التكبر والتمرد، وتحقيق الكلام في هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر في مقدمة السورة دلائل ظاهرةً على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يَبعد من العاقل أن لا يطَّلع عليها، ولا يقف على حقائقها؛ أتبعها بما هو السبب الأصلي في الغفلة عنها؛ وهو حبُّ الدنيا، والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة، فإنه لا سبب لعمَى القلب في الحقيقة إلا ذاك. فإن قيل

1 انظر: الشحود، علي بن نايف، هداية القرآن للتي هي أقوم، (ماليزيا: دار المعمور، بهانج، ط2، 1431هـ/2010م)، ص291.

2 انظر: الميداني، مرجع سابق، ص9-20.

3 البخاري، صدّيق بن حسن بن علي الحسين القِنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن، تقديم ومراجعة، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، (بيروت: المكتبة العصرية، د.ط، 1412هـ/ 1992م)، ج15، ص312.

إن فرعون ادَّعى الربوبية فقال الله ﷻ في حقه ﴿**اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ**﴾: [النازعات:17]، وههنا ذكر في أبي جهلٍ ﴿**لَيَطْغَىٰ**﴾ فأكَّده بهذه اللام، فالسبب في هذه الزيادة: قلنا فيه وجوهٌ:

أحدها: أنه قال لموسى اذهب إلى فرعون إنه طغى، وذلك قبل أن يلقاه موسى، وقبل أن يعرض عليه الأدلة، وقبل أن يدَّعي الربوبية. وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسليةً لرسوله ﷺ حين ردَّ عليه أقبح الردِّ. **وثانيها:** أن فرعون مع كمال سلطنته ما كان يزيد كفره على القول، وما كان ليتعرَّض لقتل موسى عليه السلام ولا لإيذائه، وأما أبو جهلٍ فهو مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي ﷺ وإيذاءه. **وثالثها:** أن فرعون أحسن إلى موسى أولاً وقال آخِراً آمنت، وأما أبو جهلٍ فكان يحسد النبيَّ ﷺ في صباه وقال في آخر رمقه بلِّغوا عني محمداً أني أموت ولا أحد أبغض إليَّ منه. **ورابعها:** أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابل الكليم كاليد في مقابلة العين، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده، بل يصون عينه باليد فلهذا السبب".

ومن موضوعات التعليل هنا أيضاً الدعوة إلى الله ؛قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة:143]، يقول الزمخشري: "ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم أمةً وسطاً؛ خياراً، وهي صفةً بالإسم الذي هو وسط الشيء ... لأن الوسط عدْل بين الأطراف؛ ليس إلى بعضها أقرب من بعض، ثم ذكر أن الشهادة تكون في الآخرة؛ لأنهم يشهدون إذا جحدت الأمم الأنبياء، ولما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له، جيء بكلمة الاستعلاء، وقيل لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار"[1]. فهنا لم يُقتصر على ذكر ميزة الأمة الإسلامية بأنها الوسط، بل ذُكر ذلك مع تعليل تلك الميزة؛ حتى تكونوا شهداء على الناس، ذلك؛ لندرك العلة ونتأملها؛ فلو فقه المسلم العلة من الوسطية، والمكانة التي أولاها الله له بذلك؛ لأدَّى به إلى الانطلاق للدعوة للإسلام، وحمل الأمانة.

وفي العهد المدني أيضاً كان لا بدَّ من تفصيل الأحكام الشرعية؛ عن طريق استخدام أسلوب التعليل. لذا فإن أسلوب التعليل بذلك المفهوم هو المنتشر في معظم سور القرآن الكريم، سواءٌ في العهد المكي، أو العهد المدني؛ ذلك أنه لم يقتصر على موضوعٍ دون آخر، بل لزمته كل الجوانب والمواضيع. ففي الفترة المكية، كان لا بدَّ من إقامة الإيمان في نفوس الناس؛ نتيجة اقتناعهم بالأدلة المبثوثة حولهم، والتي لفت القرآن الكريم الأنظار إليها باستخدام أسلوب التعليل؛ للنظر والسؤال، ومن ثم التوصل إلى النتائج، عن قناعةٍ ودرايةٍ، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٧]، يقول الإمام ابن عاشور في تفسير ذلك: "وهذا تذكيرٌ بوحدانية الله، ﷻ وبعظيم خلقة النجوم، وبالنعمة الحاصلة من نظام سيرها إذ كانت هدايةً للناس في ظلمات البرِّ والبحر يهتدون بها....، والمقصود الأول من هذا الخبر الاستدلال على وحدانية الله ﷻ بالإلهية...، فلام "لكم" في قوله تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُمُ**﴾ علَّةٌ ثانيةٌ لـــ ﴿**جَعَلَ**﴾ فاللام للعلَّة أيضاً، وقد دلت الأولى على قصد الامتنان، فلذلك دخلت على ما يدلُّ على الضمير الدَّال على الذوات، كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾ [الشرح:1] واللام الثانية دلَّت على حكمة الجعل وسبب الامتنان وهو ذلك النفع العظيم"[2]. فسيقت العلل هنا للهداية بها، في معرض الأدلة العقلية المحسوسة على وجود الله ﷻ، أي في موضوع الإعتقاد.

1 انظر: الزمخشري، مرجع سابق، ج1، ص337–339.

2 ابن عاشور، مرجع سابق، ج7، ص140.

مما سبق تبين الشمول في الموضوعات التي جاء فيها التعليل، وذاك فيه إشارةٌ واضحةٌ من القرآن الكريم لأهمية أسلوب التعليل، وإن هذا الأمر يدفع إلى سبر مظاهر تلك الأهمية بالبحث والدراسة، كما أنه يُبقي الباب مفتوحاً للكشف عن أسرار هذا الاهتمام.

فوائد التدبر: حتى يحقق التدبر أهدافه فقد ذكر العلماء عدة أمورٍ تلزم المسلم وتظهر فوائدها كما يأتي:

1. أن يجعل من الآية منطلقاً لعلاج حياته وواقعه، وميزاناً لمن حوله وما يحيط به؛ ذلك بعد قيام المتدبّر بحصر فكره وحضور قلبه والخشوع والتأثر باستشعاره أن القرآن يخاطبه، وأيضاً ملاحظتة البعد الواقعي لموضوع الآيات المعللة.
2. الفهم وسرعة التدبر وسلامة النتائج؛ ذلك من خلال النظرة التفصيلية في سياق الآية بعد الوقوف أمامها وقفةً متأنيةً فاحصةً من حيث ترتيلها، وتركيبها، ومعناها، ونزولها، وغريبها، ودلالاتها؛ مما يتطلب الإلمام بقدرٍ من علوم اللغة وقواعدها.
3. اكتشاف المناسبة أو الغرض التعليمي أو التربوي ضمن المنهج التعليمي التربوي القرآني العام؛ وذلك بالبحث والتأمل وتفعيل عدّة قواعد للتدبر والاسهاب فيها؛ كارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرّق في القرآن، ومراعاة وحدة موضوع السورة القرآنية، وغيرها من القواعد.
4. بعد التوصل إلى معرفة المراد من المعنى ضمن أسلوب التعليل، فإن ذلك المعنى وُجد من أجل أن يرجع عملياً في السلوك، يتأثر المسلم بالمراد من الآية بعد تدبرها، حتى يكون أسلوب التعليل طريقة في تلقي معاني الآيات وتطبيقها في كل المجالات؛ عقيدةٍ وشريعةٍ ،وأخلاقٍ كما يتبين من الأمثلة الآتية.

فائدة التعليل في العقيدة

لقد منَّ الله تعالى على البشرية إذ ابتعث منهم الرسل وأرسل معهم الكتب تهدي وتعلم من شاء منهم إلى سواء السبيل، حتى لم يترك الله لأحدٍ حجةً يتذرّع بها يوم الحساب، وكلّ تلك الرسالات قامت على التوحيد الخالص لله رب العالمين، وختمت برسالة المصطفى ﷺ إذ بيّن لهم المنهج الواجب التمسك به العاصم من الانحراف والزلل؛ والقائم على العقيدة البيضاء والشريعة الغراء.

ولأهمية أسلوب التعليل وأثره في إبراز المعاني بطريقةٍ ملفتةٌ للنظر في الآية، بحيث تضطرّ القارىء أو السامع لها إلى إعمال فكره لاستحضار العلّة المرجوّة، وترسّخها في ذهنه؛ سيقت به كثيراً من الآيات التي تحدّثت عن مواضيع في العقيدة؛ عرضت هنا نماذج لآيات حول ركن التوحيد وما فيه من أصنافٍ، وما يتضمّنه من معاني التقوى والاستسلام للخالق، وأسماء الله ﷻ الحسنى وصفاته، وركن الإيمان بالأنبياء والرسل، كنبوة محمد ﷺ، مع إيراد بعض التفاسير لها ومن ثم استنتاج ما يتيسّر من الفوائد الناجمة عن إدراج تلك الموضوعات العقدية بذاك الأسلوب البياني المبدع، وقبل إدراج تلك الآيات أقدّم بتعريفٍ للعقيدة الإسلامية.

وخلاصة ما سبق: أن تدبر القرآن الكريم فيه التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وذلك بإعمال النظر العقلي في دلالات الدلائل على ما نُصبت له، فالمتدبر يتعقب ظواهر الألفاظ القليلة ليعلّم ما يُدبِر ظواهرها من المعاني الكثيرة المكنونة، والتأويلات اللائقة، تلك النظرة الفاحصة العميقة لتركيب الآية وما فيها من علوم اللغة وأساليب البيان واستنتاج دلالاتها وما ورائها، وما يعني ذلك وما يعقبه في فكر وسلوك المتدبر في حياته؛ له الدور الأكبر في التعرض لأسلوب التعليل بالبحث والشرح والتنقيب والتمحيص؛ وبالتالي التأثر به.

تعريف العقيدة

يرى بعض الباحثين أن لفظ العقيدة هو لفظٌ مستحدثٌ في العصر العباسي، للمعنى الذي استُعمل فيه؛ وأنّ لفظ الإيمان هو المستعمل في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى: ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ**﴾ [الشورى:52] وإن ما ظهر في المجتمعات الإسلامية من مشكلات سياسيةٍ واجتماعيةٍ، وتحديات مع الأديان والفلسفة التي اتّسعت حولها جلسات العلم والنقاشات، ورُوّجت بين المسلمين وهدّدت بُنية العقيدة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي؛ كل تلك الأسباب دفعت الفكر الإسلامي في سبيل الدفاع عن مرجعيته العقدية إلى أن يتجه إلى معالجةٍ تنظيريةٍ فكانت نشأة علم العقيدة الذي برز من خلاله لفظ العقيدة[1].

العقيدة لغةً: جاءت كلمة العقيدة من عقد، يعقد، واعتقد الشيء صلُب واشتدّ، اعتقد كذا بقلبه، أي عقد رأي، وفي عقدته ضعف أي في رأيه ونظره في مصالح نفسه، عقد قلبه على الشيء: لزمه، معقودٌ في نواصيها الخير: أي ملازمٌ لها كأنه معقودٌ فيها[2]، يظهر من ذلك أن العقيدة فيها معاني الصلابة والالزام واليقين والبعد عن الشك.

العقيدة اصطلاحاً: عرّفها من العلماء القدامى؛ شيخ الإسلام ابن تيمية بأنها: "الأمر الذي تصدّق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقيناً عند صاحبه لا يُمازجه شك ولا يخالطه ريب"[3]. وعرفها كذلك الإمام الجرجاني بأنها: "ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل"[4].

وعرّفها من العلماء المحدثين أبو بكر الجزائري بأنها: "الصلابة والقوة والشدة مجموعةٌ من قضايا الحق البدهيَّة المسلّمة بالعقل، والسمع، والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه ويثني عليها صدره جازماً بصحتها قاطعاً بوجودها وثبوتها لا يرى خلافها أنه يصحّ أو يكون أبداً[5].

وهناك توضيح للعقيدة يدخل فيه معنى الإيمان عند ابن باديس فيقول: الدِّينُ كلُّه عَقْدٌ بالقلب ونطْقٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح الظاهرة والباطنة. وكلّ واحدٍ من الثلاثة يُسمَّى إيمَانًا باعتبارٍ، ويسمَّى إسلامًا باعتبارٍ آخر. فَعَقْدُ القلب يسمّى إيماناً لأنه تصديقٌ، ويسمّى إسلاماً لأن عقد القلب على الشيء إذعانٌ وخضوعٌ له. ونطق اللسان بالشهادتين يسمّى إيماناً لأنه دليلٌ على التصديق ويسمّى إسلاماً لأنه دليلٌ على الخضوع والانقياد. وتأتي العقيدة بمعنى الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّـهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾ [البقرة:285][6]

1 انظر: ضميريه، عثمان، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، (السعودية: مكتبة السوادي للتوزيع، ط2، 1417ه/1996م)، ص67-73.

2 انظر: ابن منظور، مرجع سابق، مادة (عقد)، ج9، ص310-311.

3 العتيبي، سعود بن سعد بن نمر، ضوابط استعمال المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل السنة والجماعة، (السعودية: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط1، 1430ه/2009م)، ص40.

4 الجرجاني، مرجع سابق، ص196.

5 الجزائري، أبو بكر، عقيدة المؤمن، (مصر، مكتبة الكليات الأزهرية، ط2، 1398هـ/1978م)، ص21.

6 انظر: ابن باديس، عبد الحميد محمد، العقائد الاسلامية، رواية: محمد الصالح رمضان، (الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية مرازقة بوداود وشركاؤهما، ط2، د.ت)، ص 53.

أما التعريف الجامع لمعاني التعاريف السابقة فهو ما استنتجه الدكتور سعود العتيبي وهو: "ما يجب على الإنسان أن يعتقد به من العقائد الإسلامية كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"[1].

تبيّن من تلك التعريفات مدى أهمية العقيدة في حياة المسلم؛ فبما ينعقد عليه قلبه من الحقائق يكون هذا عقداً صلباً شديداً، هو يحتاجه كذلك ليقيم حياته كلها على ذلك البناء الصلب الثابت الذي يلزمه الخضوع والاستسلام لما اعتقده ولما آمن به من مجموعة قضايا الحق البدهيّة، وهي التي تدفعه للعمل؛ فالعقيدة هي الدين كله كما قال ابن باديس؛ ينعقد القلب عليها، وينطق بها اللسان، وتعمل بها الجوارح ظاهرةً وباطنةً.

موضوعات العقيدة

في هذا المبحث ليس المقصود تعليل أفعال الله سبحانه، ولا الخوض في ذلك، أو أقوال علماء الكلام ومذاهبهم من معتزلةٍ وأشاعرةٍ وغيرهم. إنما الغاية هنا استنتاج للآيات المتضمنة لأسلوب التعليل في معرض الحديث عن العقيدة، لما يقع في حق الناس وليس تعليل ما هو في حق الله، فالله ﷻ يعلو ولا تعلل أفعاله قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس:83]، فلا تعليل هنا لإرادة الله ﷻ فالله ﷻ لا يليق به إلا الجمال والجلال، ولا خوض هنا فيما يجب على الله ﷻ رعاية الأصلح لعباده أم لا يجب وفيما كان بين المعتزلة والأشاعرة. وفي هذا يبيّن الزركشي أثناء عرضه للطرق الدالة على العلة؛ بأنه قال عن اللام في بعض الآيات هي للعاقبة ذلك لأن أفعال الله ﷻ لا تعلل؛ أي لا تجب؛ ولكنها لا تخلو عن الحكمة، وقد أجاب الملائكة عن قولهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ**﴾ [البقرة:30] بقوله: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:30] ولو كان فعله سبحانه مجرداً عن الحِكَم والغايات لم يسأل الملائكة عن حكمته، ولم يصح الجواب يكون يعلم ما لا يعلمون من الحكمة والمصالح، وفرّق بين العلم والحكمة. [2]

إن أسلوب التعليل حين أُدرج وكان محور الآية هو العقيدة؛ يمكن استنتاج الجانب التطبيقي الذي حثّت عليه، والذي يؤثر في القارىء والسامع فيغير سلوكه، خاصةً إن كان عالماً أو متعلماً. لذا فقد عرضت الآية، وبعض التفاسير لها وتحليلها ثم محاولة استنتاج فوائد من إدراج أسلوب التعليل فيها،كما أن موضوعات العقيدة كثيرة وليس هنا المجال لبحثها جميعها إنما أذكر بعضاً منها وما ستتناوله الآيات المختارة هنا الوارد فيها التعليل,وأبدأ بأهم أركان الإيمان، وهو التوحيد.

تحقيق التقوى

التقوى من المواضيع التي تندرج تحت مفهوم التوحيد، وهي الأمر العظيم الذي يقوم عليه دين الفرد، وبه يتحدد القبول عند الله ﷻ، وقد تناوله العلماء قدامى ومحدثين بكثيرٍ من الشرح والتعريف والتفصيل، وليس ذلك موضوع الدراسة هنا، لذلك سأكتفي بعرض تعريفٍ واحدٍ له في اللغة وفي الاصطلاح.

التقوى لغةً: كلمة التقوى من الفعل الثلاثي وقي، وقاه الله وقيا ووقاية أي صانه، ووقاه حماه منه، وتوقّى واتقّى بمعنى، وتقيته تقيً وتقيةً وتقاءاً بمعنى حذرته، والاسم التقوى؛ التاء بدل من الواو، والواو بدل من الياء[3].

1 العتيبي، مرجع سابق، ص45.

2 الزركشي، مرجع سابق، ج3، ص92.

3 انظر: ابن منظور، مرجع سابق، ج15،ص.377و378.

التقوى اصطلاحاً كما عرّفها الإمام ابن القيم هي: "العمل بطاعة الله إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالأمر، وتصديقاً بموعده، ويترك ما نهى الله عنه إيماناً بالنهي، وخوفاً من وعيده"[1]. ذلك التعريف مستنبطٌ من قوله تعالى: ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ فالآية جمعت أصول الإيمان الخمسة؛ الإيمان بالله، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، وشرائع الاسلام الظاهرة من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وكذلك الأعمال القلبية كالصبر والوفاء بالعهد، كما خُتمت الآية بصفة من يقوم بكل ذلك ﴿**وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ أي هي خصال التقوى كما أوضح ذلك الإمام ابن القيم[2].

مما سبق يظهر أن مفهوم التقوى يجمع معاني الصيانة والوقاية والحماية والحذر. والمسلم يصون ويقي ويحمي نفسه في الدنيا من المعاصي فيكون حذراً يراقب نفسه، وبذلك هو يصونها ويقيها فيحميها من العذاب يوم الجزاء عند الحساب؛ فكلمات المعنى اللغوي بها يتحقق المعنى الاصطلاحي.

ومن الآيات التي تناولت مفهوم التقوى بأسلوب التعليل قوله تعالى:.﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة:21]، تناول الإمام الزمخشري تلك الآية في تفسيره بإسهابٍ وتفصيل؛ وهو يرى أن (لعل) هنا هي للترجي والإشفاق، أي ترجي العباد، وقد استدل على هذا المعنى بالآيتين: ﴿**لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ [طه: 44]، ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا**﴾ [الشورى:18]، ولئلا يتكل العباد فهو يعطيها معنى الإطماع دون التحقيق، وهو بذلك ينفي المعاني الأخرى المحتملة ومنها: أن يحمل المعنى على رجاء الله ﷻ تقواهم؛ لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، أو أن يخلقهم راجين للتقوى، أو أن تكون لعل بمعنى كي. وهو يرى بذلك أن (لعل) واقعةٌ موقع المجاز لا الحقيقة؛ لأن الله ﷻ خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركّب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم، وهداهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجّح أمرهم، وهم مختارون بين الطاعة والعصيان. ويرى أن المطلوب تحققه هو التقوى التي هي قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾ أي: للاستيلاء على أقصى غايات العبادة، وذلك سيكون أبعث على العبادة، وأشد إلزاماً لها، وأثبت لها في النفوس، ونحوه[3]. وفسرها الإمام الحافظ الرازي بمعنى: "لعلكم تتقون النار بالصلوات الخمس"[4]. وفي تفسير الإمام الإيجي الشيرازي

1 ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب أبو عبد الله، مجموع الرسائل، الرسالة التبوكية، زاد المهاجر إلى ربه، تحقيق: محمد عزيز شمس، إشراف: الشيخ بكر أبو زيد، مجمع الفقه الإسلامي بجده، (السعوديه، دار عالم الفوائد، د.ط، د.س)، ص8.

2 انظر، ابن قيم الجوزية، مجموع الرسائل، ص6-8.

3 انظر: الزمخشري، مرجع سابق، ج1، ص75.

4 الرازي، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الحنظلي، تفسير ابن أبي حاتم الرازي المسمى التفسير بالمأثور، ضبطه وراجعه: أحمد فتحي عبد الرحمن حجازي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1427هـ/2006م)، ج1، ص49.

أي: "اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين، أو خلقكم ومن قبلكم في صورة من يُرجى منه التقوى أو خلقكم لكي تتقوا"[1].

وقد أورد الشيخ الآلوسي[2] نحواً من المعنى الذي أدرجه الإمام الزمخشري؛ لكنه يجيز إبقاء الترجي على حقيقته مصروفاً إلى المخاطبين –أي راجين التقوى– ويبيّن أن المراد بها حينئذ منتهى درجات السالكين وهو طرح الهوى ونبذ السوى والفوز بالمحبوب الأعلى وفي ذلك غاية المبتغى، وهو لا يستبعد معنى التعليل لــ (لعل)؛ لأنها تأتي بمعنى كي، أو لأنها تجيء للإطماع، ويؤكد أن أفعاله تعالى معللةً بمصالح العباد مع أنه سبحانه لا يجب عليه الأصلح، وقد حمل على كل من أنكر تعليل بعض الأفعال لأن من فعل ذلك فقد كاد أن ينكر النبوة، ثمّ أضاف موضحاً أنه لما أمر سبحانه المكلفين بعبادة الرب الواجد لهم ووصفه بما وصفه– والصفة آلةٌ لتمييز الموصوف عمّا عداه– فإن تعليق الحكم بالوصف مُشعرٌ بالعلّية[3].

أما الإمام ابن عاشور فيبيّن أن جملة ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ هي تعليلٌ للأمر.﴿**اعْبُدُوا**﴾ أي أمرتكم بعبادته لرجاءٍ منكم أن تتقوا. وبعد عرضه وجوهاً لبعض المفسرين في تأويل (لعل) والرد عليهم، جاء بوجهٍ مستقلٍ له؛ حيث فرق بين نوعين لــ (لعل)؛ فبيّن بأن (لعل) الواقعة في مقام تعليل أمرٍ أو نهيٍ لها استعمالٌ يغاير استعمال (لعل) المستأنفة في الكلام، سواءٌ وقعت في كلام الله ﷻ أم في غيره، ثم بيّن أنه إنما أُتي بــ (لعل) لأن المقام يقتضي الرجاء، فالتزام تأويل هذه الدلالة في كل موضعٍ في القرآن فيه تعطيل لمعنى الرجاء الذي يقتضيه المقام؛ ويبيّن نظرته تلك ببيان أنه لما كانت التقوى نتيجة العبادة جعل رجاءها أثراً للأمر بالعبادة. ويخلص إلى أن المعنى: اعبدوا ربكم رجاء أن تتقوا فتصبحوا كاملين متقين، وإن التقوى هي الغاية من العبادة، فرجاء حصولها عند الأمر بالعبادة، وعند عبادة العابد، أو عند إرادة الخلق والتكوين واضح الفائدة[4].

وقال سعيد حوى في تفسيره: "أي اعرفوه ووحدوه وأدّوا له حقوق الربوبية بعبادتكم إياه...لعل في أصل اللغة للترجي والإطماع ولكنه في القرآن إطماعٌ من كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه، فمن عرف الله ﷻ حق المعرفة، ووحّده حق التوحيد، وعبده حق العبادة، وحققه الله ﷻ بالتقوى كان من المفلحين"[5]. وهذا يعني أنه قد أدرج الآية تحت باب توحيد الله ﷻ في الربوبية؛ بقيام العبد بالعبادة التي يستحقها ربه، وأنها لا تكون إلا بعد تحقق معرفته له، لعل ذلك يوصل صاحبه إلى درجة المتقين المفلحين.

---

1 الشيرازي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي الشافعي، جامع البيان في تفسير القرآن ومعه حاشية محمدبن عبد الله الغزنوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2004م) ج1، ص33.

2 الآلوسي: هو أبو الفضل محمود عبد الله الحسيني الآلوسي، مفسّر محدّث أديب، له روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ودقائق التفسير، توفي ببغداد سنة 1270هـ. انظر: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط15، 2002م)، ج7، ص 176.

3 انظر: الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ضبط وتصحيح: علي عبد الباري عطيّه، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1426ه/2005م)، ج1، ص188و189.

4 انظر: ابن عاشور، مرجع، ج2، ص 328–330.

5 حوى، سعيد، الأساس في التفسير، (مصر، دار السلام، ط5، 1419هـ/1999م)، ج1، ص94و95.

المستفاد من الآية [21:البقرة]

1. يرى الإمام الزمخشري أن المطلوب تحققه من قوله ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ هو التقوى التي هي قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، والاستيلاء على أقصى غايات العبادة، وإن طرح الآية هذا الطلب بأسلوب التعليل سيكون أبعث على العبادة، وأشد إلزاماً لها، وأثبت لها في النفوس؛ مما يدفع المسلم إلى تغيير سلوكه لما يحب الله ويرضى، وبأقصى جهدٍ دون كسلٍ أو تراخي. ذاك الطلب تبيّن كذلك عند العلّامة الآلوسي عندما بيّن أنه بالتقوى يبلغ العبد منتهى درجات السالكين؛ بطرح الهوى ونبذ السوى والفوز بالمحبوب الأعلى وفي ذلك غاية المبتغى.

2. وقد أكد ذلك الرازي بضرب مثالٍ لتلك العبادة؛ ففسرها بتتقون النار بالصلوات الخمس.

3. وعند الإمام الشيرازي الشافعي كان المعنى النهائي في تفسير تلك الآية هو: رجاء الانخراط في سلك المتقين.

4. كذلك الإمام ابن عاشور الذي يرى أنه لما كانت التقوى نتيجة العبادة جعل رجاءها أثراً للأمر بالعبادة، وأراد لصاحبها الهمّة والعمل والارتقاء حتى يصبحوا كاملين متقين، وإن التقوى هي الغاية من العبادة، فرجاء حصولها عند الأمر بالعبادة، وعند عبادة العابد، أو عند إرادة الخلق والتكوين واضح الفائدة.

5. كما أن سعيد حوى كان قد أبرز المعنى الحركي ذاته؛ ببيانه أن من عرف الله ﷻ حق المعرفة، عبده حق العبادة، وتحقق له التقوى وكان من المفلحين.

يتبيّن مما سبق أن كل التفاسير أوردت معنى العلة من العبادة إمّا مباشرةً أو بالمعنى؛ وهي تحقيق أعلى درجةٍ من الخوف من الخالق عن طريق التقوى؛ وإن المتأمل في الآية يجدها لم تقف عند الأمر بالعبادة فقط، في قوله: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾ مع أن المعنى قد تم يعني لم تختم الآية عند كلمة ﴿**خَلَقَكُمْ**﴾ بل ختمت بتعليل ذلك الأمر، وهذا يفيد في أهمية التعليل للعباده؛ فبتعليلها قد يتصور المسلم النتائج التي قد يصل لها بعد قيامه بالفعل، وهذا يعطيه حافزاً للهمة والنشاط والتشمير للعبادة.

إذاً يلاحظ من تلك التفاسير، أن المعنى يدور ويتمحور حول الغاية من أسلوب التعليل، أي استنباط فوائد سلوكيةً يتأثر بها المسلم في حياته.

وخلاصة ما سبق حول فائدة التعليل في العقيدة: أن العقيدة لفظٌ مستحدثٌ في العصر العباسي، نشأ دفاعاً عن الفكر الإسلامي، بعد المشكلات والتحديات التي هددت بُنية العقيدة الإسلامية مع الأديان والفلسفة التي اتّسعت حولها جلسات العلم والنقاشات، والعقيدة هي الأمر الذي تصدّق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقيناً عند صاحبه لا يُمازجه شك ولا يخالطه ريب. فالدِّينُ كلُّه عَقْدٌ بالقلب ونطْقٌ باللسان، وعملٌ بالجوارح الظاهرة والباطنة. وهوما يجب على الإنسان أن يعتقد به من العقائد الإسلامية كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وفي موضوعاتها ليس المقصود تعليل أفعال الله ﷻ، إنما الغاية هنا استنتاج للآيات المتضمنة لأسلوب التعليل في معرض الحديث عن العقيدة، لما يقع في حق الناس فالله ﷻ لا يليق به إلا الجمال والجلال، ولا خوض هنا فيما يجب عليه من رعاية الأصلح لعباده أم لا يجب. فيمكن استنتاج الجانب التطبيقي الذي حثّت عليه الآيات، والذي يؤثّر في القارىء والسامع فيغيّر سلوكه.

فائدة التعليل في الأحكام الشرعية

تعرضت الأمة الإسلامية عبر تاريخها الحافل لكثيرٍ من الفتن والضربات والمحن الداخلية والخارجية؛ كالحملات الاستعمارية العسكرية منها والسياسية وكان لكل ذلك آثاره السلبيّة في تقسيم الجسم الإسلامي وتفرّقه، والضعف الهائل في مناحي الفكر

والعلم والفقه، ممّا حمل كثيرٌ من الفقهاء بالمناداة إلى غلق باب الاجتهاد، واعتبار كلّ اجتهادٍ هو من باب البدعة[1] المرفوضة؛ حتى كان لكل ذلك الأثر الكبير في تغييب العقل المسلم من الإبداع والاجتهاد والتفكير في كثيرٍ من المسائل والقضايا الشرعية. وعلى الرغم مما حدث، ومن نجاح أعداء الأمة من خلال الغزو الفكري[2] من إقصاء الشرع عن كثيرٍ من مناحي حياة المسلم، إلا أنه سمح في الوقت نفسه بوجودٍ للنظام الإسلامي التقليدي[3] للبقاء إلى جانبه، مما أحدث صراعاً دائماً بين كل ما هو تقليدي، وبين ما أوجده النظام الغربي في الدولة الإسلامية، حتى اعتراها الوهن والضعف قبل أن تصحو وترجع أخيراً إلى فتح باب الاجتهاد[4].

ومع وعي الأمة مؤخراً بمصابها وما صاحبها من محاولات استرجاع ماضيها العلمي والفقهي النيّر، إلا أنه ما زال هناك فهماً يضيّق ذلك ويدفع إلى نهج التقليد الجامد المقيت الذي يعجز عن مواكبة المستجدات المتسارعة في كل مناحي حياة الإنسان، فتأتي آيات الأحكام هنا الواردة بالأسلوب التعليلي من باب التأكيد على فتح المجال للعقل المسلم إلى التفكير والاجتهاد واستنباط فهمٍ متجددٍ لا ينته.

معنى الأحكام الشرعية

شمول أسلوب التعليل لمعظم الموضوعات الواردة في القرآن الكريم، يعني أن الأحكام الشرعية؛ كان لها النصيب الأكبر في ذلك، مما أفاد كثيراً، في الكشف عن علل التشريع والتي يستشعرها المسلم عند إقباله على الله ﷻ، فيحمل النفس على محبته وطاعته إذا عُرفت وتجلّت للعابد، تلك الفوائد ستتبيّن في هذا المبحث بإذن الله ﷻ من خلال استقراءٍ وتحليلٍ لبعض الآيات في القرآن الكريم، بعد بيان مفهوم الحكم الشرعي.

معنى الحكم لغةً: أصل هذا اللفظ من الفعل حكم، يحكم حكماً، والحكم القضاء وجمعه أحكام[5].

ومعنى الشرعية لغةً: من شرع الوارد يشرع شرعاً وشروعاً: أي تناول الماء بفيه، والشريعة والشراع والمشرعة: المواضع التي ينحدر إلى الماء منها، والشريعة في كلام العرب مورد الشاربه، والشريعة دينٌ وملّةٌ ومنهاجٌ ومذهب[6].

ومعنى الحكم الشرعي اصطلاحاً كما عرّفه القاضي ناصر الدين البيضاوي هو: خطاب الله ﷻ المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء[1] أو التخيير[2]. وقد عرفه في عصرنا القاضي عبد الوهاب خلاف[3] بانه في اصطلاح الأصوليين هو: خطاب الشارع

1 البدعة: هي كلّ فعلٍ مخالفٍ للسنة، وسميت بذلك لأن صاحبها ابتدعها من غير دليلٍ معتبرٍ من الأئمة. انظر: الجرجاني، مرجع سابق، ص43.

2 الغزو الفكري: هو إغارة الأعداء على أمةٍ من الأمم بأساليب مختلفةٍ، ووسائل عديدةٍ لتدمير قواها الداخلية والأخلاقية؛ بقصد تصفية العقول والأفهام لتكون تبعاً ذليلاً مسخّراً للمستعمر. انظر: الميداني،عبد الرحمن حسن حبنّكة، غزوٌ في الصميم، (بيروت، دمشق: دار القلم، ط1، 1402هـ/1982م)، ص13-20.

3 التقليد: اتباع وموافقة قول الغير، واعتقاد صحته دون حجةٍ أو دليل، وكأن ذلك الرأي هو قلادةً في عنقه لا ينفك عنه. انظر: الجرجاني، مرجع سابق، ص64.

4 انظر: الفاروقي، اسماعيل، إسلامية المعرفة، (بيروت: مطبعة دار الهادي، ط1، 1421هـ/2000م)، ص73-75. وانظر: القطان، منّاع بن خليل، تاريخ التشريع الإسلامي، (مصر، مكتبة وهبه، ط5، 1422هـ/2001م)، ص399-402.

5 انظر: ابن منظور، مرجع سابق، ج3، ص270.

6 انظر: المرجع نفسه، ج7، ص86و87.

الشارع المتعلق بأفعال المكلفين طلباً أو تخييراً أو وضعاً[4]، أما في اصطلاح الفقهاء فهو: الأثر الذي يقتضيه خطاب الشارع في الفعل، كالوجوب والحرمة والإباحة؛ ويتّضح الفرق بين المصطلحين بأمثلةٍ منها؛ قوله تعالى ﴿**أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة:1] ففي هذه الآية يقتضي وجوب الإيفاء بالعقود، أي أن النصّ هو نفسه الحكم في تعريف الأصوليين، أما في تعريف الفقهاء فإن وجوب الإيفاء هو الحكم[5].

وعلى هذا فإنّ الأحكام الشرعية تشمل كل أفعال الإنسان بكل مناحي حياته، وكان لأفعاله خطاباً من الله ﷻ في القرآن الكريم وقد وردت بأساليب عدةٍ ومنها أسلوب التعليل، أي أنّ ذكر الحكم وشرحه بالتعليل تتكشّف مقاصد الشرع كما يتبيّن في الأمثلة الآتية.

الصلاة وأثرها على صاحبها

تُعدّ الصلاة من أهم أركان الإسلام وشعائره والتي تصل العبد بخالقه، وتعطي عنواناً للمرء على أنه مسلمٌ مستسلم خاضعٌ لبارئه، وقبل إيراد الآية الوارد فيها أسلوب التعليل والتفاسير فيها، أعرّف مفهوم الصلاة.

معنى الصلاة لغةً: من صلا بمعنى الدعاء والاستغفار، والصلاة الركوع والسجود، والجمع صلوات، وأصلها في اللغة التعظيم، وسميت الصلاة المخصوصة صلاةً لما فيها من تعظيم الرب تعالى وتقدُّسٍ[6].

معنى الصلاة اصطلاحاً: هي عبادةٌ ودعاءٌ لله ﷻ فيها القيام والركوع والسجود بالأذكار المشروعة[7]. وقد وردت الصلاة في القرآن الكريم بعدة معاني أحصاها الإمام الفيروز آبادي على ثلاثة عشر موضعاً؛ بمعانٍ؛ كالدعاء، والاستغفار، والرحمة، وصلاة الخوف، وصلاة الجنازة، وصلاة العيد، وصلاة الجماعة، وصلاة الجمعة، وصلاة السفر، وصلاة الأمم الماضية، وكنائس اليهود، والصلوات الخمس، وبمعنى الإسلام[8]. أي أن الصلاة عبادةٌ جسديةٌ روحيةٌ تخضع فيها كل جوارح المرء فتستسلم فيها النفس لباريها وتتصل بعالم السماء حيث الرحمن وحيث الجنان ذلك من خلال كلمات التعظيم والإجلال للواحد الديّان؛ بالدعاء وآي الذكر الحكيم.

---

1 هذا يعني الحكم التكليفي أي: ما اقتضى من المكلف طلب فعلٍ كوجوب الصدقة والحج والوفاء بالعقود، أو كفّه عنه، أو تخييره بين الفعل والكف عنه. انظر: عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، (مصر: مكتبة الدعوة، شباب الأزهر، ط8، د.ت)، ص101. وانظر: الجرجاني، مرجع سابق، ج1، ص33.

2 البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر، الآسنوي، جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الشافعي، نهاية السول في شرح منهاج الأصول، ومعه حواشيه المسماة سلم الوصول لشرح نهاية السول (بيروت: عالم الكتب، د.ط، 1982م، القاهره: المطبعة السلفية، دار القلم، 1435هـ)، ج1، ص 47.

3 عبد الوهاب خلاف ت 1956م، هو أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة سابقاً، تقلّد مناصب القضاء، ومفتشاً للمحاكم الشرعية وغيرها، من مؤلفاته السياسة الشرعية، والوقف والمواريث وغيرها. انظر: عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، ص3و4.

4 أي ما اقتضى وضع شيءٍ سبباً لشيءٍ أو شرطاً له، أو مانعاً منه، مثاله؛ اقتضى وضع إرادة إقامة الصلاة سبباً من إيجاب الوضوء. انظر: المرجع نفسه، ص102. ولمعرفة تفاصيل انواع الحكم الشرعي وأمثلته، انظر: المرجع نفسه، ص100-120.

5 انظر: المرجع نفسه، ص100.

6 انظر: ابن منظور، مرجع سابق، ج14، ص464 و466. وانظر: الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز، ج3، ص 435.

7 انظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي، شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: خالد بن علي بن محمد المشيقح، (السعودية: دار العاصمة، ط1، 1418هـ/1985م)، ص29و30.

8 انظر: الفيروز آبادي، مرجع سابق، ج3، ص 436-438.

ومن الآيات الواردة بأسلوب التعليل والتي يُستنتج منها أثر الصلاة على من يقيمها بخشوعها قوله تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: 45] ذكر الإمام الزمخشري هنا أن الصلاة تكون لطفاً في ترك المعاصي، أي كأنها ناهيةٌ عنها؛ وبيّن وأكّد أن المقصود بذلك الصلاة الخاشعة وليس أيّ صلاة، ثمّ فسّر قوله تعالى: ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ**﴾ أي أن الصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وسمّاها بذكر الله ﷻ ليستقلّ بالتعليل[1] كأنه قال: والصلاة أكبر لأنها ذكر الله ﷻ أو ولذكر الله ﷻ عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى أن ينهى من اللطف الذي في الصلاة[2]. لذلك هو يريد هنا ليس أيّ صلاةٍ؛ بل ينبغي أن تكون صلاةً بنية الخوف من الله ﷻ، حتى تكون علةً للطف الله ﷻ تعالى ليحمي صاحبها من الوقوع في المعاصي، فقد بيّن ذلك كما قال: ليستقلّ بالتعليل، أي لتظهر العلة المباشرة؛ فالصلاة هي الذكر لله، ﷻ وليس هناك أكبر من ذكر الله ﷻ، وهو موجود في الصلاة وهو يكون دافعاً لينهى صاحبه عن إتيان الفاحشة والمنكر.

أمّا الإمام البيضاوي فقد أكّد أيضاً أن الصلاة تكون سبباً للإنتهاء عن المعاصي حال الإشتغال بها وغيرها من حيث إنها تذكّر بالله ﷻ، وتورث النفس خشيةً منه، وفي قوله﴿**وَلَذِكْرُ اللَّـهِ أَكْبَرُ**﴾ أي أن الصلاة هي أكبر من سائر الطاعات، وبيّن أن الله ﷻ قد عبّر عن الصلاة بالذكر؛ للتعليل بأن اشتمالها على ذكره هو العُمدة، في كونها مفضّلةٌ على الحسنات ناهيةٌ عن السيئات[3].

أما الشيخ الآلوسي فبيّن أن الله ﷻ بأمره رسوله ﷺ بإقامتها فإنّ ذلك متضمناً لأمر الأمة بها وعلل بقوله: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ أي كانه قيل وصلّ بهم ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾، ثم بيّن المقصود بالنهي؛ بشرحه لصنوف العبادة فيها من تكبيرٍ، وتسبيحٍ، وقراءةٍ، ووقوفٍ بين يدي الله ﷻ ، وركوعٍ، وسجودٍ، فكلّ ذلك غايةٌ في الخضوع والتعظيم؛ وكأنها تقول لمن يأتي بها لا تفعل الفحشاء والمنكر، ولا تعصي رباً هو أهلٌ لما أثبتَّ به، وكيف يليق بك أن تعصيه وقد أثبتَّ ما يدل على عظمته وكبرياءه خلال الأقوال والأفعال في الصلاة، فإن فعلت الفحشاء والمنكر؛ فكأنك تناقض نفسك[4].

هنا التعليل بالجملة والتي تبدأ بحرف إنّ يسوق كل ما تتضمنه الصلاة من أقوالٍ وحركاتٍ وأفعالٍ إلى الاستقامة بعد استشعاره سوء وقوعه فيما يغضب الله.

وجاء استنتاج المفكر سيد قطب من ذاك الأسلوب التعليلي؛ بأنه حين تقام الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ ذلك أنها اتصالٌ بالله وهذا سيُخجل صاحبه ويستحي، فكيف سيلقى الله وهو مصطحباً معه كبائر الذنوب وفواحشها؛ كما أن الصلاة قد شُرعت لتطهّر وتجرّد، وهذا الطهر لا يتسق مع دنس الفحشاء والمنكر[5].

والإمام ابن عاشور بيّن أن تعليل إقامة الصلاة كان بالإشارة إلى ما فيها من الصلاح النفساني ففي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ اعتبر موقع ﴿**إِنَّ**﴾ هنا كموقع فاء التعليل، وأكّد أن هذا التعليل موجّهٌ إلى الأمّة؛ لأن النبي ﷺ

---

1 وما يشبهه من هذا التفسير أيضاً، انظر: النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بدوي، راجعه وقدّم له: محيي الدين ديب مستو، (بيروت: دار الكلم الطيب، ط1، 1419ه/1998م)، ج2، ص679.

2 انظر: الزمخشري، مرجع سابق، ص820.

3 انظر: البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ((بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، 1418هـ)، ج، ص 196.

4 انظر: الآلوسي، مرجع سابق، ج10، ص 367.

5 انظر: قطب، سيد ابراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن الكريم، (بيروت، القاهره: دار الشروق، ط17، 1385هـ)، ج5، ص2738.

معصومٌ عن الوقوع في الفحشاء والمنكر. كما أنّه قد لفت النظر إلى أنه قد اقتُصر على تعليل الأمر بإقامة الصلاة دون تعليل الأمر بتلاوة القرآن؛ لوجود سرٍّ إلهي في الصلاح الذي جعله في الصلاة لا يهتدي إليه الناس إلا بإرشادٍ منه؛ فأخبر أن الصلاة تنهى المصلّي عن الفحشاء والمنكر؛ وتُيسّر له ذلك. وفي معرض تفسيره بيّن أنه قد كان للمفسرين طرائق في التعليل الوارد في تلك الآية؛ كقول البعض بأن المراد بالتعليل ما للصلاة من ثوابٍ عند الله ﷻ، فردّ عليه بأن ذلك غرضٌ آخر وليس مُنصبّاً إلى ترك الفحشاء والمنكر، ولكنّه من وسائل توفير الحسنات لعلها أن تغمر السيئات؛ على اعتبار أن الحكم هنا عاماً في كل صلاةٍ ولا يختص بصلاة الأبرار.كما أنه قرّب صورة التعليل للأذهان أكثر عندما أوضح أن ﴿**تَنْهَى**﴾ هي على المجاز، وشبه الصلاة بالناهي، ووجه الشبه؛ أن الصلاة تشتمل على مُذكّراتٍ للمصلي كالواعظ المذكّر بالله ﷻ؛ ثم عدّد جزئيات الصلاة من أقوالٍ وأفعالٍ بالتفصيل؛ لما لها من تأثيرٍ على صاحبها الاستقامة[1]. أي أن التعليل قد أُدرج هنا بصورةٍ تشبيهيةٍ اشتملت على كامل عناصرها؛ المشبه والمشبه به ووجه الشبه؛ ليكون التعليل أكثر إيضاحاً وأشدّ رسوخاً في الذهن.

المستفاد من الآية [العنكبوت:45]

من خلال استقراء التفاسير السابقة لهذه الآية يمكن استنتاج ما يأتي:

1. تناول الإمام الزمخشري في تفسيره للآية تعليلان؛ ففي التعليل الأول أفاد باستنتاجه أن الصلاة الخاشعة هي الناهية عن المعاصي، وهذا من لطف الله، وأفاد من التعليل الثاني؛ بأن الله ﷻ سمّى الصلاة بذكر الله ﷻ؛ ليستقلّ بالتعليل، أي أفاد عن حقيقة الصلاة وما تحتويه فعلاً من أذكارٍ خالصةٍ لله، فطبيعتها أنها ذكرٌ لله ﷻ فقط وليس لغيره.

2. وكذلك الإمام الألوسي بيّن التعليل في الآية وأفاد منه من خلال مخاطبة الرسول ﷺ للأمة إذا صلّى بهم؛ لما للصلاة من فائدةٍ في النهي عن الفحشاء والمنكر، كما أفاد من التعليل أن قام بتفصيل العلة بذكره لصنوف العبادة في الصلاة من تكبيرٍ وتسبيحٍ وقراءةٍ وغيرها؛ إذ أنّ العلة حملته للإسهاب في شرح جوانب العبادة في الصلاة، حتى يتبيّن أنّ جوانب العبادة تلك هي التي دفعت صاحبها لاستشعار عظمة الخالق فارتدع عن المعصية، وهذا التفسير كان استنتاج الإمام ابن عاشور أيضاً.

3. أفاد المفكر سيد قطب من أسلوب التعليل بوصف الحالة التي تعتري مقيم الصلاة الخاشع، وما يحتمله من مشاعر الهيبة في الحضرة الإلهية؛ حتى أن ذلك يجعله خجلاً فيما لو اقترف ما يغضب مولاه الذي يناجيه ويتذلل له ويرجوه ليستجيب، فكيف يكون مع ذلك حاملاً للذنوب، إنّ ذلك لا يستوي مع ما يبتغيه من ربه رجاء الطهارة والسموّ.

6. أفاد الإمام ابن عاشور بأن أطلق على صنوف العبادة التي تحتوي الصلاة بالصلاح النفسي، الموجه إلى الأمة وليس للنبي المعصوم من الوقوع في الفحشاء والمنكر. وبيّن أن الله ﷻ قد علل الأمر بإقامة الصلاة، ولم يعلل الأمر بتلاوة القرآن؛ فالله ﷻ هو الذي ييسّر ذلك، وهو السرّ الإلهي في صلاح الفرد من إقامته للصلاة. كما أنّه قرّب المعنى؛ بأن بيّن أنّ هذا التعليل فيه استعارةٌ؛ وشرح عناصر الصورة ببيان المشبه والمشبه به ووجه الشبه.

وإن شمول موضوعات التعليل تتناول الكثير لكن لا يتسع المجال هنا لها كلها، وهذه أمثلةً مختصرةً لموضوعي القصص القرآني والحدود. فقد جاء في قصة موسى عليه السلام في مشهد إيمان السحرة قوله تعالى: ﴿**قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ**

1 انظر: ابن عاشور: مرجع سابق، ج20، ص 258و259.

مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:72و73]، بيّن ابن عاشور أن قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا**﴾؛ في محلّ العلة، للكلام المتضمن السابق؛ وهو ظهور استخفافهم بوعيد فرعون وبتعذيبهم لهم؛ أي أن إيمانهم ويقينهمبالله تعالى حملهم على عدم الاكتراث لفرعون وموقفه منهم، وهذا علة الآية السابقة ﴿**قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا**﴾.[1]**إن هذا التعليل يلفت نظر المتدبر إلى أن حال المسلم المتعرض للابتلاء والفتنة من أعداء الله ﷻ هي حال المعتز بدينه المفتخر به، الواثق بربه؛ وذلك جعل كل الدنيا بعذاباتها تهون في عينه؛ فالتعليل أبرز حقيقة تحقير الدنيا وفتنتها.**

أما في الحدود فقد ورد في حدّ الحرابة قوله تعالى:﴿ **إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّ**﴾ [المائده:33]، بيّن ابن عاشور أن معنى محاربة الله ورسوله هنا هي محاربة شرعه، وقصد الاعتداء على أحكامه، وتأويل ذلك أن فيه محاربةً لجماعة المسلمين، وقد جعل الله لها جزاءاً كجزاء الردة؛ فالجزاء لأجل المحاربة، وكذلك عطف ﴿ **وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً**﴾؛ لبيان القصد من حربهم الله ورسوله، فمجموع الأمرين سببٌ مركبٌ للعقوبة.[2] وهذا من باب التعليل في الحدود؛ فعلة الجزاء والعقوبة هو محاربتهم لشرع الله، فتعليل إقامة الحد يحمل على تطبيقه بعد فقه العلة، فالله لا يظلم الناس ولكنهم هم الظالين لأنفسهم بما كسبت أيديهم.

وخلاصة ما سبق حول فائدة التعليل في الأحكام الشرعية:

1. أن مع صحو الأمة ورجوعها أخيراً إلى فتح باب الاجتهاد ووعيها مؤخراً بمصابها وما صاحبها من محاولات استرجاع ماضيها العلمي والفقهي النيّر، إلا أنه ما زال هناك فهماً يضيّق ذلك ويدفع إلى نهج التقليد الجامد المقيت الذي يعجز عن مواكبة المستجدات المتسارعة في كل مناحي حياة الإنسان، فتأتي آيات الأحكام هنا الواردة بالأسلوب التعليلي من باب التأكيد على فتح المجال للعقل المسلم إلى التفكير والاجتهاد واستنباط فهمٍ متجددٍ لا ينته. وإن شمول أسلوب التعليل لمعظم الموضوعات الواردة في القرآن الكريم، يعني أن الأحكام الشرعية؛ كان لها النصيب الأكبر في ذلك، مما أفاد كثيراً، في الكشف عن علل التشريع والتي يستشعرها المسلم عند إقباله على الله ﷻ، فيحمل النفس على محبته وطاعته إذا عُرفت وتجلّت للعابد لأن الحكم الشرعي هو الأثر الذي يقتضيه خطاب الشارع في الفعل، كالوجوب والحرمة والإباحة وعلى هذا فإنّ الأحكام الشرعية تشمل كل أفعال الإنسان بكل مناحي حياته، وكان لأفعاله خطاباً من الله ﷻ في القرآن الكريم وقد وردت بأساليب عدةٍ ومنها أسلوب التعليل.
2. تُعطي الصلاة عنواناً للمرء على أنه مسلمٌ مستسلم خاضعٌ لبارئه، فهي عبادةٌ ودعاءٌ لله ﷻ فيها القيام والركوع والسجود بالأذكار المشروعة فهي عبادةٌ جسديةٌ روحيةٌ تخضع فيها كل جوارح المرء فتستسلم فيها النفس لباريها وتتصل بعالم السماء حيث الرحمن وحيث الجنان ذلك من خلال كلمات التعظيم والإجلال للواحد الديّان؛ بالدعاء وآي الذكر الحكيم. والعلة حملت على الإسهاب في شرح جوانب العبادة في الصلاة، حتى يتبيّن أنّ جوانب العبادة تلك هي التي دفعت صاحبها لاستشعار عظمة الخالق فارتدع عن المعصية فكانت بمثابة الصلاح النفسي له، كما أفادت من أسلوب التعليل بوصف الحالة التي تعتري مقيم الصلاة الخاشع، وما يحتمله من مشاعر الهيبة في الحضرة الإلهية؛ حتى أن ذلك يجعله خجلاً فيما لو اقترف ما يغضب

1 انظر: المرجع نفسه، ج16، ص267.

2 انظر: المرجع نفسه، ج6، ص181و182.

مولاه الذي يناجيه ويتذلل له ويرجوه ليستجيب، فكيف يكون مع ذلك حاملاً للذنوب، إنّ ذلك لا يستوي مع ما يبتغيه من ربه رجاء الطهارة والسموّ، وقد علل الأمر بإقامة الصلاة، ولم يعلل الأمر بتلاوة القرآن؛ فالله ﷻ هو الذي ييسّر ذلك، وهو السرّ الإلهي في صلاح الفرد من إقامته للصلاة.

3. إنّ مظاهر اليسر والتخفيف في أحكام الشرع كثيره؛ وإن كان البعض يعتقد أنها أوامر ونواهي مشددةً تقيد حياة الفرد وتمنعه من ممارسة حياته الطبيعية؛ إلا أن هؤلاء واهمون، ولو تتبعوا أوامر الله تعالى وتعليله لكثيرٍ منها ستنجلي بذلك حقيقة رفع الحرج والضيق والتخفيف والتيسير، وذلك رحمةً بالعباد ولطفٌ بهم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فائدة التعليل في الأخلاق

إن شمول أسلوب التعليل لمعظم الموضوعات الواردة في القرآن الكريم، يعني أن بعض الأخلاق قد سيقت بذلك الأسلوب، مما أفاد كثيراً، في الكشف عن علل تلك الأخلاق والتي يستشعرها المسلم عند إقباله على الله ﷻ، فيحمل النفس على محبته وطاعته والتخلق بها؛ إذا عُرفت وتجلّت للعابد، تلك الفوائد ستتبيّن في هذا المبحث بإذن الله ﷻ من خلال استقراءٍ وتحليلٍ لبعض الآيات في القرآن الكريم، بعد بيان معنى الأخلاق.

معنى كلمة أخلاق في اللغة: هي جمع خُلُق وخُلْق أي السجيّة، وهو الدين والطبع، وأصله من خَلَق: وهو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودةٌ، وأصله الخلق والتقدير، والخَلق في كلام العرب ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه[1].

ومعنى الأخلاق اصطلاحاً: جمع الخلق: وهو عبارةٌ عن هيئةٍ راسخةٍ لنفس المرء تصدر عنها أفعاله بسهولةٍ لا تكلفه عناء تفكيرٍ أو وقتٍ، فإما يكون خلقاً حسناً لموافقة تلك الأفعال ما أمر به الشرع، وحسّنه العقل، وإلا فهو خلق سيءٌ وأفعاله قبيحةً[2].

هذا يعني أن تلك الأفعال صادرةٌ عن صاحبها بإرادته؛ وإما تكون من الخير الذي يأمر الشرع به ويدعو له، أو تكون من الشر المنكر الذي نهى الشرع عنه وحذّر منه؛ وكل ذلك يعطي دلالةً واضحةً على حقيقة أن الأخلاق في الإسلام هي أحكامٌ شرعيةٌ، أي أن المسلم ليس له الخيار في أخذ أو ترك ما يشاء منها؛ بل هو ملزمٌ فيها ومسؤولٌ عنها؛ عليه الالتزام بهذا الخلق إمّا أخذاً وإمّا تركاً. قال تعالى: ﴿**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النحل:93].

ذلك جعل النظام الأخلاقي في القرآن يتّسم بعدة ميزاتٍ أهمها قاعدة الإلزام التي تدور عليها كل منظومة الأخلاق في الإسلام، فيصبح كل فردٍ في المجتمع المسلم متحملاً للمسؤولية التي أنيطت به في موقعه؛ مما يحقق أهداف الإنسانية من نشر العدالة وتحقيقها في المجتمعات[3]. ومن خلال اختيار بعض الأخلاق الواردة بأسلوب التعليل؛ كالحكم بالعدل مع غير المسلمين، وخلق الصبر، وغضّ الصوت؛ سيظهر فوائد ذلك الأسلوب في تحمل المسؤولية اتجاه تلك الأخلاق.

الحكم بالعدل مع غير المسلمين: من الأخلاق التي شملتها آي الذكر الحكيم ما يتعلق بشؤون الدولة وما يقوم عليها وما يثبت أركانها؛ كواجبات الحاكم تجاه الرعية، وأهمها العدل الذي يجب أن يُنفِذه في كل الأحوال ومع كل الرعايا على اختلاف مللهم وأجناسهم؛.قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل:90] بيّن المفكر سيد قطب أن القرآن الكريم جاء لينشىء أمّةً وينظّم مجتمعاً، بل كانت مهمّته أن ينشىء عالماً

1 انظر: ابن منظور، مرجع سابق، ج10، ص 85و86.

2 انظر: الجرجاني، مرجع سابق، ص101. وانظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج3، ص53.

3 انظر: درّاز، محمد بن عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، (مصر: الرسالة، ط10، 1418ه/1998م)، ص21.

ويقيم فيه نظاماً، إنه دعوةً إنسانيةً عالميةً لا تعصّب فيها لقبيلةٍ ولا لأمةٍ، ولا لجنسٍ، فالآصرة والرابطة الوحيدة؛ هي العقيدة، لا قوميةٍ ولا عصبيةٍ؛ فالعدل من أهم مبادىء السلوك الأساسية؛ الذي يكفل تماسك الجماعة، واطمئنان الأفراد، والأمم والشعوب؛ إنه يكفل لكل فردٍ ولكل جماعةٍ قاعدةً ثابتةً للتعامل؛ لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالودّ والبغض، فلا محاباةً فيها، إنها تكيل بمكيالٍ واحدٍ للجميع، وتزن بميزانٍ واحدٍ للمجتمع، هذا العدل الموافق للفطرة السليمة الصحيحة؛ يقويها، فإذا زاغ الإنسان وطغى، ثارت تلك الفطرة وانتفضت، ولو بعد فترةٍ لطرد كل جسمٍ غريبٍ على تلك الفطرة، فالعدل يوافق تلك الفطرة ويقويها، ويدفعها للمقاومة باسم الله؛ لذلك جاء التعقيب: ﴿**يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ فهي موعظةٌ للتّذكر؛ تذكر حي الفطرة الأصيل القويم[1]. ويجدر الإشارة هنا إلى أن المرء لن يحقق العدل في الآخرين إلا بعد إقامته في نفسه وأهله ابتداءاً؛ بالتقوى ومراقبة أعماله، وحرصه الشديد على تحكيم الشرع في كل مناحي حياته؛ حتى يكون مستقيماً عادلاً مع نفسه وأهله، فيهون عليه إقامة العدل في الناس.

إن العدل بين الناس مثالٌ على نوعٍ من أنواع الخطاب القرآني المتعلق بالمقاصدالعامة والقيم الحاكمة التي يشير فيها الله ﷻ إلى القيم ويحدد الضوابط دون التعرض للجزئيات والتفاصيل؛ وقد تركها سبحانه لاجتهادات المجتهدين، وفهم الحكماء على اختلاف الأزمنة والأماكن والأحوال[2]. وقبل عرض الآية التي وردت بأسلوب التعليل في هذا الموضوع أوضّح معنى الحكم بالعدل مع غير المسلمين.

معنى الحكم لغة: من حكم يحكم أي قضى، والمصدر الحكم، أي العلم والفقه والقضاء[3].

ومعنى الحكم اصطلاحاً: أن يتّخذ الحاكم أو القاضي الذي نُصّب للحكم قراراً قيقضي بالعدل أو يفصل بين المتنازعين وبين الحق والباطل[4].

معنى العدل لغةً: "العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور، عدل الحاكم في الحكم يعدل عدلاً وهو عادلٌ من قومٍ عدول وعدل"[5].

ومعنى العدل بشكلٍ عامٍّ اصطلاحاً عند الإمام الجرجاني: "هو الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وقيل أنه مصدرٌ بمعنى العدالة وهو الاعتدال والاستقامة وهو الميل إلى الحق"[6]، وعند الإمام ابن تيمية: أن الإمام العادل يسعى في تنفيذ حكم الله في نفسه وأهله ورعيته، وفي الفصل بين عباد الله ﷻ لا يفضل أحداً على أحدٍ لقرابةٍ أو غنىً أو جاهٍ أو غيره، فهو عادلٌ في حكم الله ﷻ وعادلٌ بين عباد الله ﷻ[7]. وعليه فإن الحكم بالعدل يعني أن يقضي الحاكم عن علمٍ وفقهٍ بين الخصوم باعتدالٍ

---

1 انظر: قطب، مرجع سابق، ج4،ص219.

2 قد أوضح أنواع الخطاب القرآني المفكر طه جابر العلواني رحمه الله في تقديمه للكتاب، انظر: التيجاني، عبد القادر حامد، أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، (الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان: دار البشير، ط1، 1416ه/1995م)، ص5.

3 انظر: ابن منظور، مرجع سابق، ج، ص 187.

4 انظر: الجرجاني، مرجع سابق، ص92.

5 ابن منظور، مرجع سابق، ج10، ص62.

6 الجرجاني، مرجع سابق، ص147.

7 انظر: العثيمين، محمد بن صالح، شرح كتاب السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى به: صالح عثمان اللحام، (عمان: الدار العثمانية، بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1425هـ/2004م)، ص69.

واستقامةٍ مع إعطاء كل ذي حقٍ حقه دون ميلٍ ومحاباةٍ. والحكم بالعدل مع غير المسلمين: هو أن يكون قرار الحاكم عند القضاء والفصل بين المتخاصمين مسلمين وغير مسلمين عادلاً دون ميلٍ أو تفضيلٍ للمسلم على غير المسلم.

ففي الإسلام الدولة هي دولةٌ لكل الناس فيها؛ وهي ليس لفردٍ أو لفئةٍ أو لطبقةٍ، ولطالما القرآن أكّد وحدة الأصل الإنساني، وربانية المصدر السلطاني؛ فالناس يحتكمون حكاماً ومحكومين إلى شريعةٍ معلومةٍ ذات قواعد موضوعيةٍ ووجودٍ مستقلٍ قال تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّـــهِ**﴾ [الشورى:10][1].

وإن حكم الحاكم أو القاضي بالعدل مع غير المسلمين هو من ضمن الأحكام الشرعية الواجب تطبيقها، والتي أُدرجت تحت عنوان السياسة الشرعية وهي فرعٌ من فروع الإيمان الذي ينبغي على المسلم التصديق التام بصلاحيتها للبشر ما دامت من رب البريّة وقد بيّن الإمام ابن تيمية أن تلك السياسة الشرعية مبنية على هاتين الآيتين في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّـــهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّـــهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّـــهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّـــهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّـــهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـــهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ [النساء:58و59] فيرى أن الآية الأولى قد نزلت في ولاة الأمور تأمرهم بأداء الأمانات إلى أهلها، وتأمرهم أيضاً إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، ثم أكد الإمام أن الآية أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل وهما جماع السياسة العادلة، والولاية الصالحة[2].

وسيتبيّن المقصود بـــ (غير المسلمين) أكثر من خلال عرض تفسير الآية الآتية والتي تشتمل على أسلوب التعليل؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّـــهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾[3] [النساء:105]، ورد في تفسير الإمام الرازي أن معنى ﴿**لِّلْخَائِنِينَ**﴾ ولا تكن لأجل الخائنين مخاصماً لمن كان بريئاً عن الذنب، وهو يعني بذلك أن لا تخاصم اليهود لأجل المنافقين، وذكر أن معنى ﴿**بِمَا أَرَاكَ اللَّـــهُ**﴾ أي بما أعلمك الله ﷻ، وأوضح سبب تسمية ذلك العلم بالرؤية؛ بأن العلم اليقيني لا شك فيه كالرؤية في القوة والظهور، ثم ذكر أن المحققون قالوا أن الرسول ﷺ ما يحكم إلا بالوحي[4].. وقال البيضاوي لأجلهم، أي الذب عنهم خصيماً للبرآء[5].

---

1 انظر: التيجاني، مرجع سابق، ص114.

2 انظر: العثيمين، مرجع سابق، ص 5و6و17و18.

3 سبب نزول هذه الآية كما ذكرها الواحدي: أُنْزِلَتْ كُلُّهَا فِي قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ أَحَدُ بَنِي ظَفَرِ بْنِ الْحَارِثِ سَرَقَ دِرْعًا مِنْ جَارٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَكَانَتِ الدِّرْعُ فِي جِرَابٍ فِيهِ دَقِيقٌ، فَجَعَلَ الدَّقِيقُ يَنْتَثِرُ مِنْ خَرْقٍ فِي الْجِرَابِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّارِ وَفِيهَا أَثَرُ الدَّقِيقِ، ثُمَّ خَبَّأَهَا عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ، فَالْتُمِسَتِ الدِّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةَ فَلَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ وَحَلَفَ لَهُمْ: وَاللَّهِ مَا أَخَذَهَا وَمَا لَهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، فَقَالَ أَصْحَابُ الدِّرْعِ: بَلَى وَاللَّهِ قَدْ أَدْلَجَ عَلَيْنَا فَأَخَذَهَا وَطَلَبْنَا أَثَرَهُ حَتَّى دَخَلَ دَارَهُ، فَرَأَيْنَا أَثَرَ الدَّقِيقِ. فَلَمَّا أَنْ حَلَفَ تَرَكُوهُ وَاتَّبَعُوا أَثَرَ الدَّقِيقِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ فَأَخَذُوهُ، فَقَالَ: دَفَعَهَا إِلَيَّ طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ، وَشَهِدَ لَهُ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَتْ بَنُو ظَفَرٍ وَهُمْ قَوْمُ طُعْمَةَ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلِّمُوهُ فِي ذلك، فسألوه أَنْ يُجَادِلَ عَنْ صَاحِبِهِمْ، وَقَالُوا: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَلَكَ صَاحِبُنَا وَافْتُضِحَ وَبَرِئَ الْيَهُودِيُّ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَفْعَلَ، وَكَانَ هَوَاهُ مَعَهُمْ وَأَنْ يُعَاقِبَ الْيَهُودِيَّ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾الْآيَةَ كُلَّهَا، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ. الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، (الدمام: دار الإصلاح، ط2، 1412ه/1992م)، ج1، ص181.

4 انظر: الرازي، مرجع سابق، ج11، ص211و212.

5 انظر: البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج2، ص95.

وقد أبان ذلك المعنى مباشرةً الشيخ الألوسي بقوله أن اللام للتعليل، ثم ذكر ما قيل من أنها بمعنى عن؛ أي لا تكن لأجلهم أو عنهم خصيماً، أي مخاصماً للبرآء[1]. يلاحظ أنه فسّر اللام في ﴿لِّلْخَائِنِينَ﴾ لأجل أن وهذا من معاني التعليل لحرف اللام.

أما المفكر سيد قطب فقد أسهب في وصف الجو السياسي الذي نزلت فيه الآية؛ ليربط ذلك بالحاجة إلى ذلك التشريع السامي؛ وبيّن معنى ﴿**لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾ أي محامياً ومدافعاً ومجادلاً عنهم، ثم بيّن المستوى الذي تشير إليه الآيات وأنه لا يمكن أن يكون للبشر مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم، أن يرتفعوا إليه إلا بوحيٍ من الله ﷻ هذا المستوى الذي يرسم خطاً في الأفق لم تصعد إليه البشرية إلا في ظل هذا المنهج الأخلاقي القرآني، ذلك أن الأمر بإنصاف يهودي جاء في وقتٍ كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة على الإسلام والمسلمين، ينشرون الأكاذيب، ويؤلبون المشركين، ويشجعون المنافقين، ويطلقون الإشاعات، ويظلّلون العقول، ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي، محاولين تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل، وفي نفس الوقت كانت رواسب الجاهلية ما تزال آثارها في النفوس، ووشائج القربي والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود؛ تمثل خطراً على تماسك الصف المسلم. ويظهر المفكر سيد قطب عجبه من علو المستوى في ذلك الخلق، ويصفه بالنظافة والعدالة والتسامح، وأي كلامٍ يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى، وكل كلامٍ، وكل تعليقٍ، وكل تعقيبٍ؛ يتهاوى دون هذه القمة السامقة التي لن يبلغها البشر إلا أن ينقادوا بمنهج الله ﷻ إلى ذلك الأفق العلوي الكريم الوضيء[2].

لكنّ الإمام ابن عاشور فسّر قوله: ﴿**بِمَا أَرَاكَ اللَّـهُ**﴾ أن الباء للآلة، أي جعل ما أراه الله ﷻ إيّاه بمنزلة آلةٍ للحكم؛ لأنه وسيلةٌ إلى مصادفة العدل والحق ونفي الجور، وذكر أن الرؤية في ﴿**أَرَاكَ اللَّـهُ**﴾ عرفانيّةٌ؛ وحقيقتها الرؤية البصرية، فأُطلقت على ما يُدرك بوجه اليقين، ثم استنتج الإمام من ذلك أن كل ما جعله الله حقاً في كتابه فقد أمر بالحكم به بين الناس، وليس المراد أنه يُعلمه الحق في جانب شخصٍ معينٍ؛ بل المراد أنه أنزل عليه الكتاب ليحكم بالطرق والقضايا الدالة على وصف الأحوال التي يتحقق بها العدل، فيحكم بين الناس على حسب ذلك؛ مؤكداً على ضرورة أن تندرج جزئيات أحوالهم عند التقاضي تحت الأوصاف الكلية المبيَّنة في الكتاب، لذلك بيّن أهمية هذه الآية في الاستناد عليها للاستدلال على وجوب الاجتهاد في فهم الشريعة. وعنده أن اللام في ﴿**لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾ لام العلة وليست لام التقوية، ومفعول خصيماً محذوفٌ دلّ عليه ذكر مقابله وهو﴿**لِّلْخَائِنِينَ**﴾ أي لا تكن تخاصم من يخاصم الخائنين، أي لا تخاصم عنهم، فالخصيم هنا بمعنى المنتصر المدافع، وبيّن أن الخطاب للنبي ﷺ ولكن المراد الأمة؛ من خلال تحذير الذين دفعتهم الحمية إلى الانتصار لأبناء أُبيرق[3].

المستفاد من الآية [النساء: 105]

من خلال استقراء التفاسير السابقة لهذه الآية يمكن استنتاج ما يأتي:

1. أفاد المفسرون السابقون من التعليل في هذه الآية؛ أن المسلم عليه أن لا يخاصم اليهود من أجل المنافقين، لأنه بدفاعه عن المنافقين يصبح مخاصماً للبرآء من الناس.

1 انظر: الألوسي، مرجع سابق، ج3، ص134و135.

2 انظر: قطب، مرجع سابق، ج2، ص751و752.

3 انظر: ابن عاشور، مرجع سابق، ج5، ص191–193.

2. كما أفاد المفسرون أن الرسول ﷺ لا يحكم إلا بالوحي، وأضاف الإمام أبو حيان أن ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّـهُ﴾ تحتمل معاني؛ بما أعلمك من الوحي، أو بالنظر الصحيح فإنه محروسٌ في اجتهاده، ولأنه معصومٌ في الأقوال، والمعنى الأخير أي احكم بما ألقاه الله ﷻ في قلبك.

3. أفاد الإمام ابن عاشور أن كل ما جعله الله ﷻ حقاً في كتابه فقد أمر بالحكم به بين الناس، والمراد أنه أنزل الكتاب على الرسول ﷺ ليحكم بالطرق والقضايا الدالة على وصف الأحوال التي يتحقق بها العدل، فيحكم بين الناس على حسب ذلك. كما أفاد في أهمية هذه الآية للاستدلال على وجوب الاجتهاد في فهم الشريعة. من خلال تأكيده على ضرورة أن تندرج جزئيات أحوالهم عند التقاضي تحت الأوصاف الكلية المبيَّنة في الكتاب.

وخلاصة ما سبق حول فائدة التعليل في الأخلاق:

1. أن شمول أسلوب التعليل لمعظم الموضوعات الواردة في القرآن الكريم، يعني أن بعض الأخلاق قد سيقت بذلك الأسلوب وليس كلها، مما أفاد كثيراً في الكشف عن علل تلك الأخلاق والتي يستشعرها المسلم عند إقباله على الله ﷻ، فيحمل النفس على محبته وطاعته والتخلق بها؛ إذا عُرفت وتجلّت للعابد. والخلق عبارةٌ عن هيئةٍ راسخةٍ لنفس المرء تصدر عنها أفعاله بسهولةٍ، وهذا يعني أن تلك الأفعال صادرةٌ عن صاحبها بإرادته؛ إما تكون من الخير الذي يأمر الشرع به ويدعو له، أو تكون من الشر المنكر الذي نهى الشرع عنه وحذّر منه؛ وكل ذلك يعطي دلالةً واضحةً على حقيقة أن الأخلاق في الإسلام هي أحكامٌ شرعيةٌ، أي أن المسلم ليس له الخيار في أخذ أو ترك ما يشاء منها؛ بل هو ملزمٌ فيها ومسؤولٌ عنها؛ عليه الالتزام بهذا الخلق إمّا أخذاً وإمّا تركاً. وذلك يعني أن النظام الأخلاقي في القرآن يتّسم بعدة ميزاتٍ أهمها قاعدة الإلزام التي تدور عليها كل منظومة الأخلاق في الإسلام، فيصبح كل فردٍ في المجتمع المسلم متحملاً للمسؤولية التي أنيطت به في موقعه؛ مما يحقق أهداف الإنسانية من نشر العدالة وتحقيقها في المجتمعات.

2. جاء القرآن الكريم لينشىء أمّةً وينظّم مجتمعاً، بل مهمَّته أن ينشىء عالماً ويقيم فيه نظاماً، إنه دعوةً إنسانيةً عالميةً لا تعصّب فيها لقبيلةٍ ولا لأمةٍ، ولا لجنسٍ، فالآصرة والرابطة الوحيدة؛ هي العقيدة، لا قوميةٍ ولا عصبيةٍ؛ فالعدل من أهم مبادىء السلوك الأساسية؛ الذي يكفل تماسك الجماعة، واطمئنان الأفراد، والأمم والشعوب، والمرء لن يحقق العدل في الآخرين إلا بعد إقامته في نفسه وأهله ابتداءاً. والعدل مثالٌ على نوعٍ من أنواع الخطاب القرآني المتعلق بالمقاصد العامة والقيم الحاكمة التي يشير فيها الله ﷻ إلى القيم ويحدد الضوابط دون التعرض للجزئيات والتفاصيل؛ وقد تركها سبحانه لاجتهادات المجتهدين، وفهم الحكماء على اختلاف الأزمنة والأماكن والأحوال.

3. الحكم بالعدل يعني أن يقضي الحاكم عن علمٍ وفقهٍ بين الخصوم باعتدالٍ واستقامةٍ مع إعطاء كل ذي حقٍ حقه دون ميلٍ ومحاباةٍ. والحكم بالعدل مع غير المسلمين يعني أن قرار الحاكم عند القضاء والفصل بين المتخاصمين مسلمين وغير مسلمين يكون عادلاً دون ميلٍ أو تفضيلٍ للمسلم على غير المسلم؛ ففي الإسلام الدولة هي لكل الناس وليس لفردٍ أو لفئةٍ أو لطبقةٍ، ولطالما القرآن الكريم أكّد وحدة الأصل الإنساني، وربانية المصدر السلطاني؛ فالناس يحتكمون حكاماً ومحكومين إلى شريعةٍ معلومةٍ ذات قواعد موضوعيةٍ ووجودٍ مستقلٍ. وفي التعليل فائدة عظيمة تستحضر ظروف نزول الآية لربطها بعظمة الخُلق الوارد فيها؛ فالمستوى الذي تشير إليه الآيات لا يمكن أن يكون للبشر مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم، أن يرتفعوا إليه إلا بوحيٍ من الله ﷻ، وفي ظل هذا المنهج الأخلاقي القرآني، ذلك أن الأمر بإنصاف

يهودي جاء في وقتٍ كان اليهود في المدينة يطلقون كل سهامهم المسمومة التي تحويها جعبتهم اللئيمة على الإسلام والمسلمين، فأفاد بعلو مستوى ذلك الخلق، من النظافة والعدالة والتسامح.

وخلاصة المبحث الثاني: أنه يتبين زخم استخدام أسلوب التعليل في آي القرآن الكريم، كما كان ذلك شاملاً لكل موضوعاته، وبكل الوسائل والأدوات. وقد ذكرت أن تنوع الدراسات حوله قديماً وحديثاً لغوياً وأصولياً؛ لم يوفيه حقه؛ لوجود غيابٍ واضحٍ للدراسات العلمية والمنهجية التي تفرده وتبيِّن أثره على حياة المسلم، وتسهم في إثراء الفكر الإسلامي، وبالتالي جاءت هذه الدراسة كمحاولةٍ أفردت فيها أسلوب التعليل تحليلاً واستنتاجاً، وأبنت الغاية من ذلك وأثره في حياة المسلم؛ حيث تميَّز بعقليته وشخصيته الإيمانية؛ لأنه يتأثر بهذا الأسلوب في كل مناحي حياته ويقيم صلته بالله على منهجٍ واضحٍ قائمٍ على معرفة الأسباب، كما تبين كيف أن المسلم قد تميز بسلوكه الإيماني الواعي المبصر، فهو لا يكتفي بالصمت؛ بل يسأل ويعلل، ثم يستنتج ويفهم، ويلتزم ويعمل.

النتائج:

وبعد فيمكن بعد ذلك العرض استنتاج النقاط الآتية من هذه الدراسة كالآتي:

1- اختلفت التعريفات وتعددت لمصطلح "أسلوب"، بل ما زال الباب مفتوحاً لاجتهاداتٍ وأبحاثٍ تتناوله بكل صيَغه ك"الأسلوبية" وغيرها؛ ذلك أنه لازمٌ لكل العلوم قديمها وحديثها، بكل تخصُّصاتها، وبذا يكون خاضعاً للتجديد والتغيير ضمن ضوابط محدَّدةٍ خاصةٍ بنوع العلم الذي يتناوله. وإن هذا له أكبر الأهمية في الدراسة هنا، بسبب أن ذلك يفتح مجالاً رحباً للاستدلال- عن طريق هذا الأسلوب- على آثارٍ فكريَّةٍ وسلوكيَّةٍ على المسلم.

2- أن معاني أسلوب التعليل تتمحور حول الغاية التي صيغت من أجلها هذه الدراسة؛ وهي وجود نتيجةٍ وأثرٍ يرجع على المسلم بإقباله على دراسة هذا الأسلوب. ولها علاقةً كبيرةً مع أهداف هذه الدراسة؛ حيث أن كل معانيها من: الطريقة المميزة، والعلَّة، والسبب، والانشغال والمعاودة؛ هي معانٍ يحتاجها المسلم في بناء حياته؛ ليكون مؤديًّاً الأمانة التي أُنيطت به في إعمار هذا الكون وحمل رسالة الإسلام مع الانتفاع بكل ما سخَّر الله ﷻ فيه لخدمته. وفيه نوعٌ من أنواع التثبت والتأكيد؛ وكل ذلك يؤثر في النفس؛ فكلما كانت الأمور معللةً كانت أكثر وضوحاً، واستجابةً وتأثيراً.

3- إن الشمول في الخطاب القرآني بأسلوب التعليل لكل الموضوعات؛ وبأدوات مختلفةٍ يشير إلى الأهمية من وراء ذلك، كما كانت النتيجة هنا وهو؛ الأثر العظيم لإعمال الفكر، والتزام طريقة أسلوب التعليل في كل سلوكيات المسلم للسؤال والبحث في كل مجالات حياته ليكون على بصيرةٍ وعلمٍ بالأسباب والمسببات والنتائج، يسير على نورٍ وهدايةٍ ودرايةٍ.

التوصيات:

بعد التخصص والتعمق بحمد الله تعالى في أسلوب التعليل في القرآن الكريم أوصي بما يأتي:

1. ضرورة الدراسة التفصيلية لكل أدوات التعليل بإفراد كل أداةٍ واستنتاج مواضيعها.
2. دراسة علاقه مواضيع حروف التعليل بسلوك الفرد، والتفريق بينها، دراسةً فكريةً مع تطبيقاتها.
3. ودراسة النتائج الإيجابية من التعليل في القرآن الكريم، بتصنيف المواضيع في ذلك وتحليل النتائج.
4. كما أوصي بالدراسة الإحصائية لكل ما يتعلق بأسلوب التعليل وربط ذلك بالمواضع والمواضيع.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأسمر، راجي. 1413ه/1993م. المعجم المفصل في الصرف. مراجعة الدكتور إميل بديع يعقوب. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط1).

البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر1982م. نهاية السول في شرح منهاج الأصول. بيروت: عالم الكتب. (د.ط)، الآسنوي الشافعي، عبد الرحيم بن الحسن. 1435هـ، ومعه حواشيه المسماة سلم الوصول لشرح نهاية السول جمال الدين. القاهره: المطبعة السلفية، دار القلم. (د.ط).

بن باديس عبد الحميد محمد. د.ت. العقائد الاسلامية، رواية: محمد الصالح رمضان. الجزائر: مكتبة الشركة الجزائرية مرازقة بوداود وشركاؤهما. (ط2).

ابن تيمية الحراني الحنبلي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الدمشقي، 1418هـ/1985م. شرح العمدة لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: خالد بن علي بن محمد المشيقح. السعودية: دار العاصمة. (ط1).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. د.ت. المقدمة. بيروت: دار الفكر. (د.ط).

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب أبو عبد الله. د.ت. مجموع الرسائل، الرسالة التبوكية، زاد المهاجر إلى ربه. تحقيق: محمد عزيز شمس، إشراف: الشيخ بكر أبو زيد، مجمع الفقه الإسلامي بجده. السعوديه: دار عالم الفوائد. (د.ط).

ابن عاشور، محمد الطاهر. 1984م. التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر. (د.ط).

ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. 1419ه/1999م. لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ط1).

الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود البغدادي. 1426 هـ/2005. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. علي عبد الباري عطيّه. (ضبط وتصحيح). بيروت: دار الكتب العلمية. (ط2).

البخاري، صدِّيق بن حسن بن علي الحسين القِنوجي. 1412هـ/ 1992م. فتح البيان في مقاصد القرآن، تقديم ومراجعة، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري. بيروت: المكتبة العصرية. (د.ط).

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. 1418هـ. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. بيروت: دار إحياء التراث العربي. (د.ط).

بوملحم، علي. 1389ه/1968م. فن الأسلوب الأدبي. بيروت: المكتبة العصرية. (د.ط).

التيجاني، عبد القادر حامد. 1416ه/1995م. أصول الفكر السياسي في القرآن المكي. الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان: دار البشير. (ط1).

الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، 1403هـ /1983م التعريفات.تحقيق: وضبط وتصحيح:جماعة من العلماء بإشراف الناشر، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1).

الجزائري، أبو بكر. 1398هـ/1978م. عقيدة المؤمن،. مصر، مكتبة الكليات الأزهرية. (ط2).

الجوهري، إسماعيل بن حماد. 1990م الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق، أحمد عبد الغفور عطّار. بيروت: دار العلم للملايين. (ط4).

حبنّكة الميداني، عبد الرحمن حسن. 1400ه/1980م. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل تأملات. دمشق: دار القلم، (ط1).

حبنّكة الميداني، عبد الرحمن حسن. 1402هـ/1982م. غزوٌ في الصميم. بيروت، دمشق: دار القلم، (ط1).

حسان، تمام. 1420ه/2000م. البيان في روائع القرآن. القاهره: عالم الكتب. (ط2).

حوى، سعيد. 1419هـ/1999م. الأساس في التفسير،.مصر: دار السلام. (ط5).

خلاف، عبد الوهاب. د.ت. علم أصول الفقه. مصر: مكتبة الدعوة، شباب الأزهر. (ط8).

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي فخر الدين. 1420 هـ/1999. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير. صدقي محمد جميل. (تحقيق). بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ط3).

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر. 1378ه/1957م. البرهان في علوم القرآن. دار إحياء الكتب العربية. (د.ط).

الزركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس. الأعلام. 2002م. بيروت: دار العلم للملايين. (ط15).

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي. 1418هـ/1998م. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الرياض: مكتبة العبيكان. (ط1).

درّاز، محمد بن عبد الله. 1418ه/1998م. دستور الأخلاق في القرآن. مصر: الرسالة. (ط10).

سيبويه، عمرو بن عثمان عمرو بن عثمان بن قَنبر. 1412هـ/ 1992م. الكتاب، كتاب سيبويه.

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون.مصر: مكتبة الخانجي، مطبعة المدني. (ط3).

السيوطي، جلال الدين. 1395ه/1974م. الإتقان في علوم القرآن. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (د.ط).

الشحود، علي بن نايف. 1431هـ/2010م. هداية القرآن للتي هي أقوم، ماليزيا: دار المعمور، بهانج، (ط2).

الشريف، محمد حسن. 1417ه/1996م. معجم في حروف المعاني في القرآن الكريم. بيروت: مؤسسة الرسالة. (د.ط).

شلبي، محمد مصطفى. 1401هـ/ 1981م. تعليل الأحكام عرض وتحليل لطريقة التعليل وتطوراتها في عصور الاجتهاد والتقليد. بيروت: دار النهضة العربية. (ط2).

الشيرازي، الشافعي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الإيجي. 11424هـ/2004م. جامع البيان في تفسير القرآن ومعه حاشية محمدبن عبد الله الغزنوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط1)

ضميريه، عثمان. 1417ه/1996م. مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية. السعودية: مكتبة السوادي للتوزيع. (ط2).

الفاروقي، اسماعيل. إسلامية المعرفة. 1421هـ/2000م. بيروت: مطبعة دار الهادي. (ط1).

القطان، منّاع بن خليل. 1422هـ/2001م. تاريخ التشريع الإسلامي، مصر، مكتبة وهبه. (ط5).

قطب، سيد. 1423ه/2003م. في ظلال القرآن. مصر، بيروت: دار الشروق. (ط32).

العتيبي سعود بن سعد بن نمر. 1430ه/2009م. ضوابط استعمال المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل السنة والجماعة. السعودية: مركز التأصيل للدراسات والبحوث،. (ط1).

العثيمين، محمد بن صالح. 1425هـ/2004. شرح كتاب السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية، اعتنى به: صالح عثمان اللحام. عمان: الدار العثمانية، بيروت: دار ابن حزم. (ط1).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، د.ت.إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة. (د.ط).

المالقي، أحمد بن عبد النور. 21405هـ/ 1985م. رصف المباني. تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط. دمشق: دار القلم. (ط2).

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين. 1419ه/1998م. مدارك التنزيل وحقائق التأويل. تحقيق: يوسف علي بدوي، راجعه وقدّم له: محيي الدين ديب مستو، (بيروت: دار الكلم الطيب. (ط1)

الواحدي، 1412ه/1992م. أسباب نزول القرآن، تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. الدمام: دار الإصلاح. (ط2).

هلال، هيثم. 1424ه. معجم مصطلح الأصول، مراجعة وتوثيق، الدكتور محمد التونجي. بيروت: دار الجيل. (ط1).

يعقوب، إميل بديع. 1427ه/2006م. موسوعة علوم اللغة العربية. بيروت: دار الكتب العلمية. (ط1).

الرسائل العلمية

تمرغين، محمد بن داود. 1434ه/2013م. التعليل بالأسماء الحسنى في القرآن الكريم وأثره في المقاصد القرآنية. ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية.

الجنابي، يونس عبد مرزوك. 1424هـ/2003م. أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن الكريم. بغداد: جامعة بغداد.كلية الآداب.

السعدي، أمينة. 1420ه،1992م. أساليب التعليل في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية وأصولية). إشراف: أحمد أبو زيد. المغرب: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب.

عباس، أحمد خضير. 1999م. أسلوب التعليل في اللغة العربية. بغداد: كلية الآداب، الجامعة المستنصرية.

القرني، سعيد بن محمد بن عبد الله. 1421هـ/2000م. التعليل في القرآن الكريم (دراسة نحوية). إشراف: الأستاذ الدكتور مصطفى إبراهيم علي عبد الله، المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع اللغة والنحو.